خالد محمد خالد

عشرة أيام في حياة الرسول

دار العلم للملايين

عشرة أيام في حياة الرسول

خالد محمد خالد

عشرة أيام في حياة الرسول

دار العلم للملايين
بيروت

ظهرت الطبعة الأولى في مارس ١٩٧١
تحت رقم إيداع ٢١٤١ / ١٩٧٠
بدار الكتب المصرية

الطبعة الثانية ، بيروت ، يناير ١٩٧٥

مَراجع الكتاب

١ – السيرة النبوية = ابن هشام
٢ – تيسير الوصول = ابن الدَّيْبع الشَّيباني

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

* ثلاثة وستون عاماً . عاشها صاحبها العظيم في جلال يبهر الألباب .

ومن يوم مولده، إلى يوم مماته . وحياتُه الطاهرة تتشكّل في أحسن تقويم ، وتتألق بخصال فَطرَها على الكمال خلاَّقُها الأعلى ؛ لتكون للأحياء قدوة ، وللحياة نوراً ..

* وهو مذ أهَلَّ على الحياة فوق هذه الأرض ، وكل قوَى الحياة ومظاهرها في خِضَمّ التغيير .. فلم يكن — عليه صلاة الله وسلامه — مجرد إنسان يجيء إلى الدنيا في زحام الوافدين عليها كل صباح ومساء .. بل كان « قوة طبيعية » جاءت تسيطر على الزمان والمكان، وتعيد تشكيل الناس وتشكيل الحياة !!

بل كان أكبر من ذلك .. كــان « قوة إلهية » جاءت لترد الروح الإنساني إلى مَداره الأوّل حول الله الحق الذي خلق السماوات والأرض ، وجعلَ الظلماتِ والنور .

ولأنَّ الله اصطفاه لنفسه ولرسالته ؛ فلا عجب إذن أن جاءت حياته : وأن كانت أيامه مثالاً بالغ الكمال في التُّقى، والطهر ، والجلال !!

• ولقد كانت هذه الحياة، ولا تزال ، كتاباً مفتوحاً ومقروءاً .

وفي تاريخ البشرية كلها ، بكافَّة روادها وصفوتها وقادتها، لا نكاد نعرف حياة نُقِلت إلينا أنباؤها ، وحفظت لنا وقائعها في وضوح كامل ، وتفصيل عميم شامل ، كما حُفِظَتْ وكما نُقِلت حياة [محمد بن عبدالله] رسول الله رب العالمين . ورحمتِه المهْدَاة إلى البشر أجمعين ..!!!

فكل كلمة قالها.. كل خطوة مشاها .. كل بَسْمة تألَّقَتْ على مُحيَّاه .. كل دمعة تحدَّرَتْ من مآقيه .. كل نَفَسٍ تردّد فيه بحمد الله وتكبيره .. كل مَسعى ساره مع مقاديره.. كل مشاهد حياته،حتى ما كان منها من خاصَّة أمره وأسرار بيته وأهله .. كل ذلك نُقِلَ إلينا بحروف كبار ، مُوَثَّقاً بأصدق وأعرق ما عرف التاريخ الإنساني من وسائل وبيِّنات ..!

• ولقد رحل عن دنيانا إلى الرفيق الأعلى ، من قُرابةِ ألف وأربعمائة عام . ومع هذا فنحن إذ نقرأ سيرته وتاريخه اليوم، لا نحسُّ أننا نقرأ عنه .. بل لكأنَّنا نسمعه ونراه ونعيش بأنْفُسٍ مبهورة،نَفسَ المشاهد التي نطالعها مكتوبة ومسطورة.!

ولا عجب في هذا أيضاً .. فما دام الله قد اختاره ليختم به النبوة والأنبياء ، فإن من الطبيعي — وحياته ستكون نهجاً

ودليلاً لأجيال لا منتهى لأعدادها – أن تكون هذه الحياة بكل تفاصيلها أشد وضوحاً وألقاً من فَلَق الصبح ورائعة النهار . لا بالنسبة لعصره فحسب ، بل وبالنسبة لكل العصور وكل الأجيال التي ستجد في تلك الحياة المباركة نورها وهُداها..!!

* ومن هذه الحياة الطاهرة ، الناضرة ، الممتلئة ، تحاول صفحات هذا الكتاب أن تجتزىء بضعة أيام نقف عندها ونتلبّث معها، ونحيا في دائرة ضوئها وقتاً مباركاً تفيء علينا فيه من أسرارها وعطاياها .

أجَلْ .. من بين أيام حياته العظيمة البارّة التي كانت جميعها سواء في العناء والجهد .. وفي السمو والمجد .. نختار هذه الأيام العشرة . لنرى خلال مشاهدها المفعمة بالتركيز بعض خصائص ذلك التفوق المقتدر الذي حبَا الله به شخصية رسوله،عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأزكى السلام .

* ونحن إذ نخصُّها بالاختيار : لا يعني ذلك اننا نضع حياة الرسول موضع المفاضلة والانتقاء .. فحياته كلها بكل أيامها ولحظاتها سواء فيما أعطت من جهد ، وسواء فيما أدركت من سمو ، وسواء فيما غمرها الله به من نعمة وفضل وكمال .. إنما يعني اختيارنا هذه الأيام أننا وجدنا فيها مُدْخَلاً رحباً لتلك الحياة الشاهقة العميقة العظيمة .. مُدْخَلاً يفضي بنا إلى الكثير من أسرارها المضيئة ، ويجمعنا على الكثير من خصائصها المتفوقة ، وشمائلها المتأنّقة ، وعطائها الذي لا يتقاصَرُ أبداً ولا يغيض !!!

* وطبيعي أننا لا نعني باليوم هنا ، الوحدة الزمنية المتمثلة في أربع وعشرين ساعة ، وإن طابَقَ ذلك أكثر الأيام التي

اخترناها .. إنما نعني باليوم — الظرف التاريخي للمناسبة أو الواقعة التي تشدّ انتباهنا وإصْغاءنا . سواء تمثّل هذا الظّرف في يوم واحد ، أو تمثّل في بضعة أيام . فالوعاء الزمني للموقف المختار ، هو اليوم الذي نتابع أحداثه الجليلة مطالعين من خلالها وخلاله أروع ما عرف البشر من جلال النُّسُك ، وعظمة القصد ، واستقامة السبيل .

* والآن ، نستطيع أن نقترب في خُشوع وغبطة ..

خُشوعِ من يدركون جلال المناسبة وما يَبتعثه لقاؤها من تهيّب وحياء ..

وغبطةِ من يتوقعون المغانم الجزيلة ، التي ستظفر بها الروح في هذا اللقاء ..!!

خالد محمد خالد

يوم التحكيم

(وما كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وأَنتَ فيهِمْ)

١

كان هذا اليوم قبل الرسالة بخمسة أعوام ..

وعلى الرغم من أننا آثرنا أن تكون الأيام التي أخذناها لموضوع هذا الكتاب ، من الفترة التالية لبدء الوحي والواقعة في سنوات النبوة والرسالة .. فإنه لم يكن ثمّة بُدّ من مجاوزة القاعدة التي وضعناها ، تجاهَ هذا اليوم الفريد !!

إنه اليوم الوحيد بين الأيام العشرة ، نختاره من سنوات ما قبل الوحي . سنوات التهيؤ والإعداد .

وما كان لموضوع كهذا الذي نحن بسبيله أن يبلغ تمامه دون أن تُمثّل فيه فترة التهيؤ والإعداد ببضعة أيام . وما أكثر الأيام الماجدة العظيمة التي تزخر بها حياة الرسول قبل أن يناديه الوحي، ويشرق عليه يوم الاصطفاء .

بَيْدَ أنّ المجال القريب لبحثنا هذا لم يُتح لنا أن نستطرد مع روائع تلكم الأيام . فاخترنا ذلك اليوم الذي يمثل أصدق تمثيل فترة ما قبل الوحي بكل خصائصها ، ومزاياها ، وإرهاصاتها. !

إنه يوم قوي النّبض ، باهر السَّمْت ، بالغ الدلالة ..!!

وإنه لينهض شامخاً "لألاءً" فوق قمة فترةٍ من الحياة ماضية .. وفترة أخرى آتية .. فيعلمنا بصوت مسموعٍ تفسير الآية الكريمة القائلة :

[اللهُ أعلَمُ حيث يجعل رسالتَه] ..!!

أجَلْ .. سيكشف لنا هذا اليوم ، بل ستكشف لنا ساعة واحدة من ساعات ذلك اليوم كل ما زخرت به الأربعون عاماً التي سبقت بدء الوحي والرسالة من أمانة وطهر واستقامة وعظمة.. كما ستصدح دقاتها بأعظم إرهاصات المصير الإنساني،متمثلاً هذا الإرهاص في الإيماءة الصادقة إلى الرجل الذي سيحمل تبعات الغد تجاه الناس أجمعين والذي سيحمل كلمة الله للعالَم في نبوة راشدة ، وحنيفيةٍ سمحة واعدة والذي سيكون رحمة مُهداة وحُجَّة قائمة ..!!

* * *

وليبدأ حديثنا عن يوم التحكيم هذا،بعرض صورته التاريخية : فقبل بزوغ الإسلام بسنوات خمس ، والرسول صلى الله عليه وسلم في الخامسة والثلاثين من عمره المبارك ، لم يأته الوحي بعد ، وروحه تغذّ السير في بحثها عن الحق وعن الحقيقة — أجمعت قريش أمرها لبناء الكعبة أقدس ما ورثوا وما عرفوا .. كانت الكعبة يومذاك رضماً من الحجارة المرصوصة بغير مِلاط يمسكها ويزينها ، بل وبغير سقف مرفوع .

والآن وقريش تريد أن ترتفع ببنائها وتُضفي عليها من العمارة ما يليق بولائهم لها ، فقد تواصَوْا على أن يخصّوها بأطيب ما يكسبون . لقد وقف فيهم (أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن مخزوم) وهو خال والد الرسول ، وقف يقول لهم :

« يا معشر قريش ..

« لا تُدخلوا في بنائها من كَسْبِكم إلا طيباً ..

« لا تُدخلوا فيها مهر بَغِيّ ، ولا بيع رِبا ، ولا مظلمة أحد من الناس ... »

ونهضت قريش بالعمل ، جامعة له ما يحتاج من حجارة ، وملاط ، وأخشاب . ولكي يكون شرف القُربى وثوابها من نصيب القبائل جميعاً قسموا أركانها على القبائل ، حيث تشترك في كل جانب منها أكثر من قبيلة .

ونهضوا يبنون ، حتى أفضى البناء إلى موضع الركن ، حيث يقوم « الحجَر الأسود » رامزاً في جلال مَهيب لِكَدْح « إبراهيم وإسماعيل » في سبيل الله والدين .

فَمَنْ ، مِن الناس أو من القبائل سيذهب بشرف رفع الحجر ووضعه في مُتكئه ومكانه ..؟؟

ذاك شرف ، ليس في وُسْع قبيلة ما ، أن تَدَعه يفلت منها إلى قبيلة أخرى سواها ، ولو اقتضى الأمر انتضاء السيوف وملاقاة الحتوف .

ولقد طال بينهم اللجاج والخلاف ، ثم احتدم الخصام وتسعَّرت المغايظ ، وغشَّاهم نذير حرب أهلية طاحنة ، حين جاء بنو عبد الدار بجَفْنة مملوءة دماً ، ثم ألقوا هم وبنو عَدي أيديهم في تلك الجفنة ، متعاهدين معاً على الموت في سبيل ألاّ يفوتهم ذلك الشرف العظيم والقرْبَى الجليلة .

بقيت قريش في ذلك التوتر المنذر بالسوء خمسة أيام .. وفي اليوم السادس ، وقد غصّ المسجد الحرام بجموعهم المتربصة والمتحفِّزة ، أشار عليهم واحد من شيوخهم أن يُحكّموا بينهم

فيما هم فيه مختلفون أوّلَ داخل عليهم . وتواثقوا جميعاً على قبول هذه المشورة .

وجلسوا جماعات وحِلَقاً يغشاهم قَلق .. وعيونهم شاخصة نحو الباب تترقّب ..!!

ترى مَن هذا الذي ستختاره الأقدار ليجمع الشمل ويَرْأبَ الصَّدع ، ويهدي لِلّتي هي أقوم ..؟؟

ها هو ذا يبزغ فجأة ، في لحظة من أكثر لحظات الحياة امتلاءً بالتهلّل والبشرى . ولا يكاد القوم يبصرونه حتى ترتفع أصواتهم بكلمات ، كأنهم وإيّاها على موعد .

[هذا الأمينُ ، رَضينا ..]

[هذا ، محمد .. !!!]

ويتقدم « محمد » عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام .. يتقدم ليعرف : ما الخبر ؟ حتى إذا تبيّنه ، حنى رأسه في خشوع شاكراً لربه اصطفاءَه إياه لهذه المهمة الجليلة ... ولم يبحث عن الحلّ ، فقد كان إلهامه وكانت بديهته مُهيَّأيْن دائماً للعمل القويم الناجز حين تَعْمَى السُّبُل على الآخرين .

وبسط نحوهم يديه قائلاً :

[هَلُمَّ إليّ ثوبا] ...

وأسرعوا إليه بثوب بسطه الرسول ، ثم وضع الحجر في وسطه ونادى الجموع المتحفّزة آمراً إياها أن تأخذ كل قبيلة بطرف من الثوب حتى إذا فعلوا ، طلب إليهم أن يرفعوه جميعاً إلى أعلى ، وحين بلغوا مكانه المرموق أخذ الرسول الحجر بكلتا

يديه وثبّته في مقامه . وواصلَتْ قريش عملية البناء ..!!!

***

كان هذا اليوم ، يومَ الإرهاص العظيم .. واليوم الذي بدأت السماء فيه – وربما لأول مرة – تضع مُصطفاها ومختارها داخل دائرة الضوء الواسعة الرحيبة ، وتقدمه داخل دوره المنتظر بأسلوب رامز ، ريثما تقدمه في الغد القريب جهاراً علَناً ..

صحيح أن حياته السالفة كانت ممتلئة بالإيماءات المسفرة لدوره المرتقب .

ومنذ وُلد – عليه الصلاة والسلام – والإرهاصات بشأنه وبدَوْره تتوالى في مشاهد تبهر الألباب .. عندما كان في ديار بني سعد مع مرضعته «حليمة» .. وعندما كان طفلاً ينأى عن اللهو مع أترابه ولِدَاته ، ويقول :

[أنا لم أُخلَق لهذا] ...!!

ثم حين صار شاباً ، تُجمع قريش على نعته بالأمين، وتُضفي عليه من احترامها وإجلالها إجماعاً لم يظفر بمثله سواه .. وحين بَهَر « بحير الراهب » الذي وقف أمام مخايل النبوة المستكنّة في أعماقه جذلان مبهوراً ، يهز أبا طالب بكلتا يديه ويصيح به :

[ارجع بابن أخيك هذا إلى بلده ، واحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفتُ لَيَبْغُنَّه شراً .. وإنه لكائن لابن أخيك هذا شأن عظيم]

ثم حين اهتدى بفطرته النقية وبصيرته الذكية إلى ما في وثنيات قومه من ضلال فعزف عنها ورفضها . ولم يَحْنِ جبهته العالية

لصنم ولا وثن ، وراح يبحث عن دين إبراهيم ، ملتمساً العون والهدى من رب العالمين .

نقول : صحيح أن حياته كلها قبل النبوة وقبل يوم التحكيم هذا ، كانت موكباً من الإرهاصات الصادقة المبينة .. بيد أن ليوم التحكيم مزية ينفرد بها عن بقية الأيام . فالإرهاص فيه متكامل ومباشر بدور المنقذ ، ودور الرسول .. المنقذ الذي سيكون على يديه خلاص العالم من ظلماته الماحقة ، والرسول الذي لن يجيء به إلى منصة القيادة اختيار الناس ، بل اصطفاء السماء ..

فأما عن « المنقذ » ، فها هو ذا يحسم ببصيرته المضاءة بنور الله نزاعاً محتدماً كان على وشك أن يتحول إلى حرب أهلية تحمل كل ضراوة الجاهلية ، وبأس القبلية ..

وأما عن « الرسول » فها هو ذا في يوم التحكيم لا يجيء به الناس . بل يجيء به القدر العظيم .

ألم تتفق قبائل قريش على تحكيم أول قادم .. فمن الذي اختار هذا القادم ..؟

أهي قريش .. كلا ولا أحد من الناس .. إنما اختارته المقادير ! !

وكان « محمد الأمين » هو الرجل المختار .. وهذا الذي حدث يوم التحكيم مثل إرهاصاً وثيقاً بالمستقبل القريب لهذا الرجل .. إن قوة أعلى من قوة البشر ستصطفيه وتختاره لمهام أجل وأعظم ، مثلما اختارته اليوم لمهمة التحكيم .

هذا هو الرمز الحي والذكي ليوم التحكيم . وهذه قيمته الثمينة كيوم خالد في حياة الرسول .

ولا تقف دلالة الرمز ، وجلال القيمة عند هذا المعنى الذي ذكرناه ، بل تمتد إلى الأسلوب الذي عالج به الرسول الموقف

حيث يُشكّل هو الآخر إرهاصاً مُبيناً بالمنهج الذي سيمارس به النبي دوره غداً على مسرح الحياة .

إن الرجل الذي أخرج قريشاً من حيرتها يوم التحكيم، سيقدّر له في غد أن يخرج العالم كله من حيرته وضلاله ، مُرسَلاً إليه من رب العالمين .

والطريقة التي بدّد بها حيرة قريش اليوم وعالج بها محنتها ، ترهص في وضوح بالمنهج الذي سيتوسل به غداً لتبديد حيرة العالم وظُلماته فماذا كان جوهر تلك الطريقة ، لنرى من خلالها جوهر هذا المنهج .. ؟ إنه « التوفيق » ..

أجل .. لقد كان أسلوب الرسول يوم التحكيم أسلوباً «توفيقياً» وفق به في براعة فائقة بين الاتجاهات المتنابذة ، وأحلّ به مكان النفرة والتمزّق وحدة متعاضدة حققت لنفسها الخير من أقرب طريق .

وهكذا سيكون لُباب منهجه عندما يُوحَى إليه، ويحمل رسالة الله إلى الناس .

سيكون أبرز خصائص هذا المنهج أنه « توفيقي » يمثل الأمر الوَسط ويتوخى الاعتدال والقَصْد .. والناس الذين يتفرقون شيَعاً بحجة التشيّع للحق، سيكشف هو لهم التخوم المشتركة بينهم جميعاً ليجتمعوا فوقها ويبلغوا منها وبها مطالع الحق .

وكأنما القرآن الكريم يعبر عن هذا المنهج « التوفيقي » حين يقول :

[وكذلك جعلناكم أُمّةً وسَطاً]

وهو منهج يتّسق مع طبيعة الرسول وفطرته ، فلقد كان القصد لا العُنف ، سبيله دائماً إلى استجلاء الحق وإقراره .

تقول زوجه « عائشة رضي الله » عنها :

[ما خُيِّر رسول الله صلى الله عليه وسلم
بين أمرين، إلا اختار أيسَرهما . ما لم يكن إثماً]

ولسوف نرى العمل التوفيقي للرسول يبرز في وضوح وقوة خلال مساعيه لإذابة الجليد بين أصحاب الديانات السماوية؛ حتى يلتقوا جميعاً حول الحق .

وإن القرآن الكريم ليزكّي هذا المنهج التوفيقي، كما يبين في نفس الوقت مفهومه الصحيح فيقول منادياً الرسول عليه السلام:

[قل يا أهلَ الكتاب تعالَوْا إلى كلمة سواء بيننا
وبينكم ، ألاَّ نعبد إلا الله ، ولا نُشْرِكَ به شيئاً ،
ولا يتّخذَ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله] .

فدعوة أهل الكتاب إلى « كلمة سواء » محاولة عظمى للتوفيق بين الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً ..

وربْطُ « الكلمة السَّواء » بجوهر الحقيقة الدينية ، وهو عبادة الله وحده ، ونَبْذُ كل مظاهر الإشراك به .. ربْطُها بهذا الجوهر يكشف صفة هذا المنهج التوفيقي .

إنه ليس منهجاً « تبريريّاً » ولا منهجاً « نفعيّاً » بل هو منهج يعمل في خدمة الحق وحده، ومن أجل سيادة الحق وحده .

إنه تجميع حول الحق ، لا ضدّ الحق . وحين تتناوله يد أستاذ في فن التجميع والمؤاخاة ، مثلما كان رسول الله ، فإن آثاره العظيمة تجاوز آنئذ كل تصورات الفوز وأحلام النجاح .

ولقد كان « ابن عبدالله » عليه صلاة الله وسلامه أستاذ هذا الفن العظيم . ذلك أنه كان تعبيراً عن طبيعته الطيبة وتكوينه الودود.

لقد وصفه الذين عاصروه وصَحبوه فقالوا :

[... أجود الناس كفّـاً ، وأشجعهم قلبـاً ، وأصدقهم لهجة ، وألْيَنُهم عَرِيكة ، وأكرمهم عِشرة].

[من رآه بديهة هَابَه ، ومن خالطه معرفة أحَبَّه ، يقول ناعِتُه : لم أرَ قبله مثله ، ولا بعدَه]...!!

فهذا الذي هو [ألين الناس عريكة ، وأكرمهم عشرة] ..

هذا الذي تبعث بَداهَتُه الهيْبَة ، وتُفجِّر مخالطته المحبَّة..

هذا الذي لم ينتقم لنفسه من شيء ولا من أحد أبداً ..

هل يستطيع أن يكون إلاَّ داعية وفاق وإخاء ومحبّة ..؟!

***

تُرى ماذا كانت ردود الفعل لَدَى قبائل قريش يوم التحكيم عندما رأت المقادير تضع أمامها وفوقها جميعاً هذا الأمين «محمداً» ليكون بطل الموقف .. يحسم النزاع المتسعِّر في لحظة ، وبأسلوب تناهى يُسْراً ، وحكمة ، وذكاء ..؟!

إنه نجاح يشد زناد الحسد في النفوس المتطلعة .. وما أكثر هذه النفوس يومئذ . وما أسرع استجابتهـا للحسد الضاري في عالم القبائل القائم على التفاخر والزهو والاستعلاء .

ومع هذا – وتلك عجيبة أخرى من عجائب يوم التحكيم – لم يَنِدَّ عن تلك الأنفس بَصيص حَسَد .. لقد رأوا جميعاً في النجاح الذي أحرزه « الأمين محمد » نجاحاً لهم ومَجْداً لهم وفخاراً .. وخلال السنوات الخمس التي تلَتْ يوم التحكيم إلى أن بدأ الوحي ، واختير الأمين للرسالة ، ومكانةُ «الأمين» في قومه تزداد سنىً ورفعة ، ونفوذاً ..

فما سِرُّ هذه الظاهرة التي تبدو وكأنها ضد طبائع الأشياء ..؟!

كيف ظلّ أربعين عاماً بين قوم تتلمظ فيهم مَشافِر الحسد والتنافس دوماً ، دون أن تبــدو بادرة حسد ضد ما تتمتع به شخصيته الجليلة من نباهة الذكْر وجلال القدْر .؟

كيف حدث هذا مع رؤيــة قريش له ، وهو يعزف عن أصنامها فلا يشارك قط في عبادتها ، بل ولا في احترامها .؟!

لكأنّ الله سبحانه قد وضع قريشاً أمام هذه الحقيقة، لتكون أبلغ حُجَّة عليها حين تناوىء رسوله يوم يدعوهم إلى عبادة الله الواحد القهار، وتبذ ما هم فيه غارقون من وثنية وجاهلية وضلال..!!

ولقد واجهت قريش المأزق الوبيل واصطلت بناره فعلاً، حين وقفت ضد الرسول والرسالة .. سُقط في أيديهم، ولَعَشْم الخبال أحلامهم ..!!

ولقد وجدوا أنفسهم عاجزين عن أن يتنكروا للأربعين عاماً التي عاشها « محمد » بينهم ، تبهرهم منه كل يوم عظمة فضائله وتكامُل شمائله .. وعاجزين عن تناسي الحب والاحترام اللذين أضفَوْهما عليه طوال الأعوام الأربعين .. وتلفّتوا صَوْب ذلك اليوم القريب — يوم التحكيم — إذ قبائل قريش في المسجد الحرام تلعق الدم من الجِفَان تحفزاً للقتال ، وفجأة يُهِلّ عليهم « الأمين محمد » فيصيحون كالغرقى أدركتهم زوارق النجاة :

[هذا الأمين ، رَضينا] ..!!!

تلَفّتوا صَوْب ذلك اليوم ، فتغَشّتهم الحيرة والتساؤل .

أما الراشدون منهم، فأدركوا أن ذلك اليوم كان إرهاصاً ليوم الوحي العظيم ، ومن ثَمّ سارَعوا إلى النبي مُصَدّقين ومؤمنين .

وأما الغاوُون، فلا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ، ويؤودهم الانتقاص من حياة تتحدَّى كل مغمز، فلا تسعفهم قرائحهم العاجزة إلا بذلك الأفَن المضحك إذ قالوا : لقد أصابه من الجن مَسٌّ.!!!

لكن شَباةَ الحق تُجيد توجيه الوخْز الموجع إليهم ، رَادَّةً كيدهم إلى نحورهم ..

ويتقدم الوحي لكشف زيفهم ومَحْق باطلهم ، فلا يتكلمون ببادئة ولا عائدة إلا ابتدرهم من الوحي حُجَّة وسُلطان .!!

فَلْنُوَلِّ وجوهنا – الآن – شَطر ذلك اليوم الأول من أيام الوحي ، فإنه يوم باهر ومثير ..!!!

يوم الوحي

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمْ)

٢

هذه مكة تموج بالمسرّات والمباهج .. وأهلُها، أولئك العرب الذين جعلتهم الصحراء والتقاليد جبابرة وأقيالاً فارهين، منطلقون وراء أمجادهم يغنّون ويمرحون .. لا قيود تمسكهم ، ولا سدود تذودهم .. الحياة كلها مهرجان عريض دائم ، وهم فيه أبطال حلبته المبرِّزون ..!!

قوافل تجارتهم لا تكفّ عن السّرى والمسير .. وأسواقهم المفعمة بمباريات الشعر ومبارزات الرياضة ، لا تنفضُّ في مكان إلا لترفع أعلامها في مكان سواه ..

وشوارع مكة تعجّ بشبابها المعطَّر النشوان الذي لا تخبو قط أشواقه إلى الشهوة واللذاذات ..!!

ودار الندوة مثل خلايا النحل ، تموج بزعماء العشائر والقبائل، شيباً وشباباً .

ومَجاثم الأصنام حول الكعبة ، وفي أفناء مكة وخارجها ، زاخرة بالوافدين يهتفون لـ «اللاتِ ، والعزّى ، وهُبَل» .

وأفراد قلائل ، بل لنقلْ : نادرون ، يعبرون ذات الشوارع

ويرتقون ذُرَى الجبال صامتين آذانهم عن لَغو قريش ، باحثين عن الحقيقة مستشرفين رُؤاها من بعيد .. وبَعيد ..!! أولئك هم « الحنفاء » يؤمنون أن وراء آلهة قريش وأوثانها حقيقة هي الحق المبين .. وإله واحد أحد، هو رب العالمين .. ولكن كيف السبيل إلى معرفته ومعرفة ما يتقربون به إليه من طاعة ونُسُك..؟

ويرحلون عن الدنيا . واحداً إثْرَ واحد . دون أن يصلوا أو يخبروا الناس عن الحق الذي قضوا أعمارهم عنه باحثين !!

* * *

وتعلو أصوات الزحام.. زحام الحياة بكل ترفها واستهتارها . وأيضاً بكل جدّها ونشاطها .. وتمضي الأيام في مكّة هادرة صاخبة ، مثقلة بفجورها وتقواها .. وما أندر تقواها ..!!

وبعيداً عن ذلك الزحام ، كانت روح تقيّة ، نقيّة ، ورَعة متسامية ، تستشرف الحق وتكدح في سبيله . روح إنسان فطره الله على كل ما هو فاضل وكامل وعظيم .

في أناة ، كان يتأمَّل .. وفي فِطنة ، كان يتفحّص .. وفي طهر ، كان يحيا .. وفي تقوى ، كان يتعبّد .

ولكن ، إلى مَن يتجه بعبادته وتقواه ..؟!

إلى الله ، لا ريب ..

وأنّى له معرفة الله في بلد لا مكان فيه لغير تلكم الآلهة المبثوثة هنا وهناك. ولا صدى في ضمائر أهلها إلا لما لهذه الأوثان من قداسة وأنباء ..؟؟

ألا إن رؤية الحقيقة من خلال ذلك الضباب الكثيف المتراكم لأمرٌ يسير على مَن وطّن نفسه ونذر حياته لاستجلائها .

فإذا كانت مكة يومئذ بلاد الأوثان ، فقد كانت قبلئذ وطن الحنيفية السمحة التي هتف بها إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

وليس عسيراً على من يعطي أصنامها ظهره ، أن يطالع ولو بعد حين رُؤى الحق تنداح عنها مشارف تاريخ بعيد ومجيد ..

وهذا ما صنعه الأسين « محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم » .

إنه يدرك عن طريق فكره صلة النسب التي تربطه بخليل الله إبراهيم .. هذه الصلّة التي سيعبر عنها فيما بعد أصدق تعبير فيقول :

« إن الله اصطفى من ولد إبراهيم اسماعيل »
« واصطفى من ولد إسماعيل كنانة »
« واصطفى من بني كنانة ، قريشاً »
« واصطفى من قريش ، بني هاشم »
« واصطفاني من بني هاشم »
« فأنا خيار ، مِن خيار ، مِن خيار »

كذلك يدرك عن طريق روحه حاجته ، وحاجة قومه ، بل وحاجة البشرية كلها إلى دعوة إبراهيم من جديد .. تلك الدعوة التي ترتفع بالناس إلى أعلى مستويات الوجود حين تجمعهم حول الله ربهم وخالقهم ، وحين تقف بهم بين يديه وحده . لا يرجون ولا يخافون سواه ..

وهكذا أعطى ظهره لأصنام قومه ، واستدبر كل ما تموج به مكة من صخب ولهو وفتون، وراح فوق رمالها اللاهبة وصحرائها الصارمة ، وجبالها المتحدية يتتبع في مثابرة ودأب وهُيام أقدام

أبيه « إبراهيم » ، ويتنسّم عبير روحه ، ويضرع إلى الله في إخبات وتبتّل أن يهديه إلى تُراث ذلك الأب الجليل والرسول الخليل ، وأن يهيئه لحمل رايته وشُعلته ..!!

* * *

كانت النبوءات برسول يخرج في هذه الأمة ، تملأ الزمان والمكان. ولعله حين كان يستعيد ذكريات طفولته وشبابه، يغمره الحنين إلى أن يكون هو مُجْلّى تلك النبوءات :

● ألم يكن هو « الرضيع » الذي أعرض عنه النسوة السّعديات اللائي جئن «مكة» يلتمسن الرُّضعاء ، فصرفهن عنه يُتْمُه ... حتّى إذا لم تجد « حليمة السعدية » سواه حملته مستعينة بالله ، ولا تكاد تبدأ رحلة عودتها إلى ديارها حتّى تنطلق أتانها العرجاء كأنها الريح .. وحتّى تدِرّ شارفُها العجفاء فيحلبون منها غَبوقاً وصَبوحاً ، وما كانت من قبل تدر قطرة لبن واحدة .. ثم لا تكاد تبلغ ديار قومها ويثوي الرضيع اليتيم بينهم حتّى تتوالى بركاته وآياته ..؟؟

● ألم يكن هو « الطفل » الذي حملته « حليمة » مرضعته إلى عرّاف من هذيل تعوّد الناس أن يذهبوا إليه بأطفالهم ليتنبأ لهم، فلم يكد يراه ويتفرس ملامح وجهه المضيء حتّى صاح: [يا معشر هُذَيْل .. يا معشر العرب .. اقتلوا هذا الصبي. فوحقّ الآلهة. ليهدمَنّ دينكم، وليحطمن أصنامكم ، وليظهرن أمره عليكم].. واختطفته حليمة من بين يديه وفرّت به مذعورة مبهورة .

● وأليس هو الذي افتقدته « حليمة » يوماً في ظهيرة حرُّها

شديد وبعد طول بحث وسَعْي أَلْفته نائماً في صحراء تذيب شمسها الحديد، ثم اذا هو داخل دائرة من الظل تُسامِت جسمه وتغطيه دون أن تزيد . وترفع حليمة رأسها الى السماء فلا ترى مُزعة سحاب ، وتتحسس الأرض في ذهول . لعلّ هناك شيئاً ما يلقي على الطفل ظِلاله — لكنها لا تجد شيئاً ، فتَنتشي لهذا المشهد المبارك ، وتُقبل على طفلها تشمُّه وتضمُّه وتقبّله ، ثم تحمله في حنان راجعة به إلى أهلها ودارها ..؟؟!!

* * *

● ألم يكن هو «الشاب» الذي لم يكد « بحيرا الراهب » يبصره في رحلة الشام حتى ملأ الجوّ تسبيحاً لله وتمجيداً ، وحتى أقبل عليه يتَنسّم عبيره ، ويستهدي مقاديره ، وحتى أقبل على عمه « أبي طالب » يوصيه به ويُحذره عليه من يهود ..؟؟

● أليس هو الذي قضى شبابه وحياته طهراً ، وصدقاً، وأمانة، واستقامة ونُسُكاً ، حتى لقد كانت قريش بأسرها تعامله في شبابه الباكر ، وكأنه سيدها وأميرُها .

* * *

ثم هذه النبوءات القديمة ، والتي تتحرك الآن فجأة وبقوة ، يلخصها جميعاً ويصدح بها آخر الحُنفاء « زيد بن عمرو بن نُفَيْل» .

« شامَمْتُ اليهودية والنصرانية فكرهتها »
« فكنت بالشام وما والاه ، فأتيت راهباً »
« في صومعة، فذكرت له كراهيتي لعبادة »
« الأوثان وارتيابي في اليهودية والنصرانية »
« فقال لي: يا أخا العرب، إنك تطلب ديناً »
« ما أنت بواجدٍ مَن يحملك اليوم عليه ..»

« ولكن قد أطلَّ زمان نبي يخرج من بلادك »
« التي جئت منها ، يُبعث بدين إبراهيم حنيفاً مسلماً »
« فارجع إلى بلدك ، فإنه على وَشْك أن يبعث .. »
« هـذا زمانه ... هـذا زمانه ... »

* * *

قلنا : إنه كان يحدوه الحنين لأن يكون الموعود بفضل الله ونعمته .

ومَن ذا الذي لا يشرئب لشرف اصطفاء الله واجتبائه ..؟

على أن كل تلك النبوءات المشيرة إليه ، والدَّالَّة عليه لم تكن – كما يبدو من سيرته – أكثر من حافز له علي المزيد من الإخلاص في تطلعه إلى الحق ، وفي تخشُّعه وتضرُّعه وتعبُّده لله الذي يهديه إليه قلبه ، وإن لم يهده إليه بعد ، نبأ يقين .. أو وحي مبين .

كانت روحه تهفو إلى معرفة الله ، ومعرفة النهج الذي يريد الله من عباده أن يعبدوه به .. وحسبه ذلك لإرواء ظمئه وإشباع تطلُّعه .. أن يريَه الله مناسكه ، وأن يتقبله واحداً من عباده المتقين المخبتين .. أما اذا كان سبحانه يدَّخر له نعمة أسبغ ، وفضلاً أوفى ، فيصطفيه رسولاً له يبلّغ كلماته ، ويهدي اليه عباده ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته ، وذلك فضله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

وهكذا راح يعكُف بكل شوقه وعزمه على مناجاة ربه ، والتأمل في ملكوته ، نافضاً وراء ظهره كل ما تزخر به مكة من صخب وزحام .

وحُببت إليه الخلوة . فكان يكثر منها ويستزيد . ولم تتسع خلوات داره لآفاق روحه ، فكـان يشد رحاله إلى غار حراء يقضي فيه كل عام شهراً ، يتحنّث فيه ويتعبد ، حيث لا نبأة تُسمع هناك ولا همسة .. بل هدوء مفرط يكاد يسمعك نبض الدم في العروق ..!!

ومع كل يوم كانت روحه تضيف إلى رصيدها من الصفاء والألَق جديداً ..

وأخذت سمات النبوة تلقي عليه مخايلها .. فها هو ذا يمتلك نعمة « الرؤيا الصادقة » فلم يعد يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح !!..

وها هو ذا لا يجد غَنَاءً كافياً في الشهر الذي يقضي فيه خلوته بغار حراء .. فيقسم أيامه بين داره في مكة ، ومَتَنسَّكه في الغار ..!!

وذات نهار من شهر رمضان سنة تسع وستمائة للميلاد ، وهو هناك . جاء اليوم الموعود .. يوم الوحي والاصطفاء .

وجاءه المَلك ..

أي عالم باهر مليء بالجلال والهدى والخير ، فتحت أبوابه للدنيا هاتان الكلمتان : [جاءه الملك] ؟؟!!.

ألا ، وقبل أن تحملنا النشوة إلى بعيد ، علينا أن نحتفظ بثقلنا حيث نحن من الحديث لنتابع موضوعنا في أنبائه الفذة ودلالاته العظمى ..

ولنصغِ في خشوع إلى الأمين « محمد » الذي صار في هذه اللحظة « رسول رب العالمين » .

لنصغ إلى الرسول الأمين في هذا الجزء من الحديث الذي وصف به مشهد الغار ويوم الوحي :

« ... فقال : اقرأ ..
« قلت : ما أنا بقارىء ..
« فأخذني، فغطنّي — ضمّه بقوة واعتصار —
حتى بلغ مني الجهد ..
« ثم أرسلني — تركني — فقال : اقرأ ..
« قلت : ما أنا بقارىء ..
« فأخذني ، فغطّني الثالثة، حتى بلغ مني الجهد ..
« ثم أرسلني ، فقال :
« اقرأ باسم ربك الذي خلَق ..
خلق الإنسان من علَق ..
اقرأ ، وربُّك الأكرم ..
الذي علّم بالقَلَم ..
علّم الإنسان ما لم يعلَم » ..

أهلّ إذن يوم الاصطفاء ، ودقّت ساعَاتُه الماجدة ..

أعلنت السماء إذن مُختارَها ومُصطفاها الذي طال ترقُّبه ، وانتظاره ..

صدقت إذن كلمات الكتُب ، ونُبوءات الحنفاء والقدّيسين ..

وها هو ذا ، في مكان منعزل عن صخب الحياة ، في أعمق غور لأعلى جبل ، حيث أوى إلى هناك ناسكاً طَهوراً يضرع إلى ربه كي يَدلّه عليه ، يهبط عليه سفير السماء في جلاله ، حاملاً نور الله إلى المتبتّل الأوّاب ، وحاملاً إلى البشرية وثيقة

رُشْد جديد سيكون إمامُها فيه وأستاذها ومعلمها هـذا الإنسان الودود ، حفيد إبراهيم ، ودعوتُه وبُشراه ..!!

* * *

تُرى لو لم يكن يوم الوحي هذا ، بين أيام الدنيـا ، فأي مصير كانت البشرية ستُلاقيه ..؟؟

إن الكلمة التي استهلَّ بها الوحي نجواه مع رسول الله لتقدم لنا أروع وأجمع .. وأوجز وأنجز جواب ..

فإذا كان العلم ، جوهرَ كل حضارة أقامها الإنسان على ظهر أرضه ، وكوكبه ..

وإذا كان الإسلام — فيما بعد — قد قدَّم للدنيا حضارة متكاملة تدين لها كل الحضارات التي جاءت بعده ، حتّى تلك التي استهدفته بشنآنها وعدوانها .

إذا كان ذلك كذلك فإننا نستطيع أن ندرك في يُسر لـــون المصير الذي كانت البشرية ستلقاه وتتردَّى فيه لو لم يكـن يوم الوحي .. يوم « اقرأ باسم ربك » ، يوم « القرآن » و « محمد » و « الإسلام » بين أيامها ، بل على رأس أيامها .

كذلك نستطيع أن ندرك في يسر ، لماذا كانت أولى كلمات الله إلى رسوله [اقرأ] ..

لم تكن « صَلِّ » ولا « صُمْ » ، ولا « تعبَّد » بل كانت: اقرأ ..

هذه « الكلمة » التي لخصت جوهر الإسلام ومستقبله ..

فهو لن يكون دين تكريسٍ ديني فحسب . بل ولا دين سلوك فحسب ، إنما هو قبل ذلك وفوق ذلك « دين حضارة » .. جـاء

ينشيء عالماً جديداً بكل ما تحمل كلمتا « عالم » و « جديد » من معنى ودلالة .

ولكي يستيقن الناس عَبْر الزمان كله أن هذه الحضارة المقبلة هي عطاء السماء ، فقد اختير أستاذها وبانيها ذلك الذي لا عهد له من قبل بقلم ولا بكتاب .. ذلك أنه لن يكون مخترعاً لهذا الدين ولحضارته .. إنما هو مُبَلِّغ عن الله .. ناقل عطاياه من السماء إلى الأرض .. ومن ثمَّ سيكون معه من المقدرة ما يغير به كيمياء الزمن ، وكيمياء البشر وكيمياء الحياة ..!!

ومن يدري .. فلعل الضمّات الثلاث الشديدة التي ضمّه الملك بها حتى كادت أضلاعه تنسحق تحت ضغطها ، والذي وصفها الرسول في حديث آخر قائلاً : [فغطّني حتى ظننت أنه الموت].

أقول : لعلّها كانت إجراء مقصوداً لتغيير كيمياء جسده هو — وتغيير كيمياء روحه هو — عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام — حتى يتسع جسده وروحه للقوة الجديدة التي أفرغت فيهما ليحتملا عبء الرسالة وأهوال النضال .

ولعلَّ انقطاع الوحي عنه بعد هذا اللقاء الأول لفترة بلغت سنوات ثلاثاً ، كان إجراء ضرورياً، حتى يتمكن الجسد والروح معاً من استيعاب القوة الإلهية الجديدة التي أفرغها الوحي فيهما ، وحتى تتكيف كيمياء طبيعته البشرية بذلك المدَد العُلوي الذي نقلته إليه الضمّات الثلاث الضاغطة التي احتواه بها ملَك الله جبريل ..

* * *

والآن ، لنمضِ مع « يوم الوحي » في بقيته المجيدة .

إن الرسول يغادر الغار مُسرعاً تغذّ الرهبة خُطاه ، يسائل نفسه ما هذا الذي حدث فجأة وعلى غـــير انتظار ..؟ ويتلفت وراءه . وأمامه ، وعن يمينه وعن شماله ، فيطمئن إلى أنه وحده، وليس ثمت من يتبعه .. بيد أن الأفق يلتمع فجأة بضياء عجيب، فيرفع الرسول رأسه ليرى .. فإذا هو هناك يملأ الأفق في جلال مَهيب .. نفس الملك الذي كان من لحظات يملأ عليه غار حراء، وتمخر الرعدة العَذْبة جسده من جديد ، ولا يدري أيان يسير، فتتشبث قدماه بالأرض ، وتستقبل أذناه هذا النداء :

« يا محمد »

« أنت رسول الله ، وأنا جبريل »

فيغشاه من وقع المشهد ما يغشاه، وتزداد قدماه التصاقاً بموطئهما كأنهما من الأرض بعض غِراسها ..!!

ويغيب الضوء ، ويغيب معه مشهد الملَك، ويستأنف الرسول سيره مقتلعاً من الرمال خُطاه ...

ولا يكاد يبلغ داره ، ويلقى زوجه «خديجة» حتى يلقي نفسه في حِجرها وبين يديها ، وكل جسده يرتجف كالزلزال .

وتصغي « خديجة » لكلماته المترددة مع أنفاسه الوَجِلة .. يصف لها ما حدث تماماً كأنها تراه .

وتهتف « خديجة » وقد التمع وجهها الجليل تحت ضوء الأمل واليقين .

« أبْشر يا ابن عَمّ ، واثْبُت

فوالذي نفس خديجة بيده ، إني لأرجو أن تكون نبيَّ هذه الأمة . »

ويقول لها الرسول ، وقد أخذ الرّوْع يُزايله ، والسّكينة تقترب منه .

« لقد خشيتُ على نفسي »

وتجيبه خديجة .

« كلا .. وأبْشِر .. فوالله لا يُخزيك الله أبداً .

« إنك لتَصِلُ الرّحِم »
« وتَصدُق الحديث »
« وتحمل الكَلّ »
« وتكسب المعدوم »
« وتَقْري الضيف »
« وتُعين على نوائب الحق » .

لم تعش « خديجة » التجربة التي عاشها الرسول في الغار .. كانت بعيدة عن هذا الذي حدث فجأة ، وانتهى فجأة .. في لحظات ، كأنها قرن من الزمان ..!!

من أجل هذا ، كانت فرصتها مُهيأة لكي تقول كلماتها هذه في هدوء ..

وجزاها الله خيراً، فقد كان موقفها ذاك جديراً بمن اختارها القدر على عِلْم لتكون قرينة هذا الرسول ..!!

* * *

تُرى لو أن « محمداً » كان يطمح إلى مجد النبوة ، ويعمل لبلوغ هذا المجد بوسائل مصنوعة ومُتكلّفة — أكانت حالُه عند مجيء الوحي إليه ستأخذ هذا الطابع الذي رأينا ..؟

كلا .. بل ولا كانت الأقدار ستختاره لهذا العطاء .

لكن « محمداً » كان يرجو الله ربّه .. كان يريد الله ربّه.

لم تكن فيــه ذرّة طموح لمجد ديني . أعني لمجد يكتسبه باسم الدين .. بل كان كله طُموحاً لتكريس ديني .. كان كله شغفاً وهُياماً بعبودية خالصة صادقة يطرحها في تواضع وبكـاء بين يدي ربه العلي الكبير .. وكان كله شغفاً وهُياماً بأن يعرف الحق ، ثم يهديه إلى البشرية الحـائرة ويهديها إليه . ثم كانت مزاياه التي فطره الله عليها تؤهله لكل ذلك .. فكان فضل الله عليه عظيماً .

***

لم يكن من طبائع الأشياء أن تنجو « خديجـة » من ذهول المفاجأة رغم الكلمات الحانية التي ألهمتها حكمتها إياها، لتُسرّيَ بها عن الرسول رهبة المشهد ، وتخفف من وقعه وهيمنته .

لم يكن من طبائع الأشياء ، ولا من طبائع البشر ألاّ ينتقل إليها من الرهبة نصيب ، مهما حاولت بهدوئها المتبـدّي أن تكتم الرّهبة وتخفيها .

صحيح أن رهبتها لن تكون شيئاً مذكوراً بالنسبة لرهبة الرسول الذي عاش التجربة وعاناها .. بيد أنها رهبة تثير من الحيرة .. وحيرة تُثير من الرهبة ما يدخل الذكاء الإنساني مهما تكن مقدرته في أزمة تساؤل وقلق .

ولقد استطاعت « خديجة » العظيمة حقاً أن تلقى وجه المفاجأة بثبات كان نابعاً من شخصيتها الفريدة .. أما بقية المفاجأة، فقد كانت بحاجة الى نجدة أخرى تُعطي لما حدث تفسيراً ، وتُضفي

على الروع الذي لا يزال مأخوذاً ، المزيد من السكينة واليقين .. وتمثلت لها هذه النجدة في ابن عمها « ورَقة بن نوفل » واحد من الذين استهجنوا عبادة الأوثان والأصنام .. وأضنى نفسه في البحث عن الدين الحق .. وحين أدركه الإعياء ألقى رحله على مرفأ من مرافىء النصرانيـــة متمثلاً في ذلك المذهب الذي كان يرى في المسيح بشراً ، لا إلهاً ..

وهكذا اقترحت « خديجة » على « الرسول » : أن يذهبا إلى « ورَقة » عَلَّهما يجدان عنده رأياً وتفسيراً ..

كان « ورقة بن نوفل » على علم واسع بالتوراة والإنجيل .. وقد قضى شطر عمره في البحث عن دين حق يعبد الله بــه . وخلال رحلاته وأسفاره التقى بكثير من الأحبار والرهبان والناسكين ، ولطالما سمع نبوءةً تتردد بأن رسولاً يَبعث إلى الحياة دين ابراهيم على وشك أن يُهلّ ويظهر . وذهبت بعض النبوءات إلى أبعـد من هذا ، فحددت مكان ظهوره — مكة وما حولها .

وعاش « ورَقة » بقية عمره ينتظر على شوق يوم الظهور ، ويمني نفسه بصحبة الرسول الذي أجمعت نبوءات العارفين عـلى قرب مجيئه ، لذلك وطَّن نفسه على الاستقرار بمكـة في انتظار الرسول .

وهكذا لم تكد «خديجة» تقدّم اليه نبأ زوجها عليه السلام ، قائلة له :

[يا ابن عم . اسمع من ابن أخيك] — حتّى هاجته أشواقه العميقة . وأقبل على الرسول يصغي إليه في انبهار عظيم :

ولا يكاد الرسول يُنهي حديثه حتى يتهلل « ورقة » ويفيض بشراً ويعانق الرسول ويقول له :

[هذا هو الناموس الذي أُنزل على موسى ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك] .

ويسأله الرسول : [أوَ مُخرِجِيَّ هُمْ] ..؟

ويجيبه ورقة [نعم . لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزّراً] .

بهذه الحفاوة ، وبهذا اليقين تلقّى « ورقة » النبأ الحق الذي كان من قبل نُبوءة طال تطلعه اليها .

وانه ليتمنى أن يدركه يوم البعث ليكون أول المؤمنين وأقوى النُّصراء .

لكنه سيموت وشيكاً ، قبل أن يجيء يوم البعث العظيم .

وهكذا لم يُقدّر له رغـم فرحه الغامر أن يؤمن بالرسول وبالدين الجديد .

ذلك أن الدين الجديد لم يكن قد أعلن ميثاقه بعد .. والرسول لم يؤمر أن يبشر بشيء ، أو أن يتلقى بيعة .

إنه الآن يعيش في يوم الوحي .. يوم « اقرأ باسم ربك الذي خلق » . وبعد حين يجيء يوم البعث .. يوم « يا أيها المدثر ، قم فأنذر » .

وبين اليومين زمن ليس بالقصير ، سينقطع فيه الوحي لحكمة يعلمها الحكيم العليم .

وخلال هذه الفترة ، ستكون روح الرسول قد أُشرِبت النور الجديد وتهيأت لاستقبال موكبه العظيم .

وخلالها أيضاً ستكون أشواقه الحميمة والعظيمة إلى الوحي قد قهرت كل مخاوفه وتهيبه ، وأعطت روحه مَناعة هائلة ضد أي توجّس أو تساؤل .

أجَل . لقد تُرِكَ لأشواقه المحتدمة والعارمة تُشكل مُناخ علاقته بالوحي حين يعاوده ويجيئه ، وتُنضج استعداده الأخير لصحبته ..

وهكذا ، رأيناه عليه السلام ، ينطلق أمام ضغط أشواقه إلى الجبَل ، مقلّباً وجهه في السماء ، معتصراً مآقيه بدموع الحب والرجاء ، هاتفاً ضارعاً من أعماق صمته المدوّي ، علّ روح القدس يَمُنّ عليه بِعَوْدٍ قريب .

لكن روح القدس لا يملك من أمره شيئاً .. وفيما بعد سيخبر الرسول بهذه الحقيقة قائلاً له :

« وما نَتَنَزَّلُ إلا بأمر رَبك »
« له ما بين أيدينا وما خَلْفنا »
« وما بين ذلك »
« وما كان ربُّك نَسيّاً »

وظلّ يعاود قنن الجبال راجياً أن يراه .

وعلى الرغم من احتدام أشواقه ، وتوقد لهفته ، وتوجّسه الرهيب ، من أن يكون الله قد أهمل أمره وقَلاَه .. على الرغم من ذلك كله ، فإن ذلك كله لم يذهب به إلى حد الرغبة في تحرير نفسه من هذا القلق بالتخلص من الحياة – كما تزعُم بعض الأقاويل .

إن كل عناصر الموقف ترفض وتدحَض هذه المقولَة .

فليس محمد بشخصيته الراسخة وشمائله الشامخة ، من يصنع ذلك أو يفكر فيه .

ثم ان الأشواق حين تتفجّر على النحو الذي عاناه الرسول ، يكون من شأنها أن تمنح الأمل والرجاء ، لا القنُوط واليأس .

أما اختياره المرتفعات ليناجي فوقها نفسه ، ويتحسس أملَه ، فلأنها دائماً أصلح مواطن التأمل ، والتماس السكينة ، وتوقُّـــع الإلهام .

***

ألا ما أجلّها من حكمة ــ تلك التي أرادت أن يَفتُر الوحي عنه إلى حين ..

فإلى جانب كونها فرصة تستوعب فيها الروح شحنة النور التي تلقتها في أول لقاء مع جبريل .

وإلى جانب كونها مجالاً لتجميع كل قوى الشخصية وحشد طاقاتها لتقوى على الصحبـــة الطويلة للوحي .. تلك التي ستدوم ثلاثة وعشرين عاماً كاملة .

وإلى جانب كونها تمكيناً لعلاقته المقبلة مع الوحي عن طريق تحريك أعماقه بالشوق الوثيق والحميم .

وإلى جانب ما قد تومىء إليه من منحه حق الاختيار ، إن شاء أن يتقدم حاملاً من أعباء الرسالة ما يطاق وما لا يطاق . وإن شاء فليتأخر ، قبل أن يرتبط مع الوحي بعهد وميثاق ..

نقول : إلى جانب هذا الذي يمكـــن أن نلتمس فيه بعض الحكمة في انقطاع الوحي عن الرسول إلى حين .. فقد كان في

وسعه خلال تلك الفترة أيضاً ، أن يعيش في نور الآيات الخمس التي لقّنه الوحي إياها في الغار .

هذه الآيات التي تطل كلماتها المعدودة على موكب زاخر من المعاني والدلالات .

هذه الآيات التي لم تستهلّ حديثها معه عن القُرشيّ ، ولا عن العربي .. بل عن الإنسان :

[علّم الإنسان ما لم يعلم]

وكأنها تشير إلى التخوم البعيدة والفسيحة لرسالته .. فهو — عليه الصلاة والسلام — لن يكون لقريش وحدها ، ولا للعرب وحدهم ، بل للناس كافّة وللبشر أجمعين .

كذلك سيكون في وُسعه أن يروض نفسه على الكثير من الصبر والاحتمال وتجريد يقينه من كل علاقات الحياة والناس .. هذه الأمور الكبرى التي سيذكره القرآن بها كثيراً فيما بعد قائلاً له :

[فاصبرْ لحكم ربك ، ولا تكن
كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم]

* * *

[واصبر لحكم ربك ، ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً]

* * *

[ولولا أن ثبَّتناك ، لقد كدت
تركَنُ إليهم شيئاً قليلا]

* * *

أجل .. إن مع الرسول الآن ، وخلال فترة انقطاع الوحي عنه ، أعظم فرص امتلاك الصبر والاحتمال والتجريد .

وكأنما أراد الوحي بانقطاعه عنه أن يُتيح له هذه الفرصة في ذروة تعبيراتها ومسلكها .

فالذين هامت قلوبهم بحب الله ونَذْرِ حياتهم له سبحانه ، قد يطيقون الصبر معه ، أي مع مـا يتوسلون به لمرضاته من عبادات بالليل والنهار .

وقد يطيقون الصبر في سبيله، بما يحتملون من أذىً واضطهاد.

لكن الأمر الذي يجاوز طاقتهم حقاً، هو الصبر عنه ...!!

ومن ثم لا نجد نبيّـاً ولا ولياً ولا قديساً يزلزله في أهوال الحياة كلها شيء إلا أن يُسلب نعمة حب الله له ، وحبه لله .

فالصبر عن الله أمر فوق طاقة كل قديس بل وكل نبي .. فكيف إذا عانى هذا الموقف الرهيب رجل جمعه مع الله وحي سَمِعه ، وأحسَّه ، ورآه ..؟ كيف إذا عاناه رجل أرسل الله إليه وحياً وسفيراً يباركه باسمه ويبلغه تحيته ورضوانه ثم إذا هو فجأة ينقطع عنه دون أن يعطي وعداً بلقاء ...؟؟

هنا الفرصة التي لا تتكرر ؛ لكي تحـلّ في روح الرسول وشخصيته أقصى ما عرف البشر وما لم يعرفوا مـن قُوى الصبر والاحتمال والتجريد .

فأما الصبر والاحتمال ، فها هوذا يرى في لحظة من الزمان — الشمس ملء يمينه ، والقمر ملء يساره .. ثم فجأة لا يراهما .. ولا يرى إلا فراغـاً وحيرة .. وليس أمامه سوى الصبر حتى تعود الفرصة اليتيمة ، إذا كان مقدّراً لها أن تعود. ولكي يصبر على مثل هذه التجربة ويحتملها ، فإن عليه أن يُمارس نوعاً من الصبر لم تعرفه الدنيا من قبل ..!!

وأما التجريد .. تجريد يقينه بربه من كل العلاقات ، حتى

تلك التي تكون مَشُوبَة لليقين وانعكاساً له ... فها هو ذا يظفر بما لا يخطر على قلب بشر من الناسكين والعابدين — وحي من الله يزوره ويُقرئه آياته ، ويقول له : أنت رسول الله . وأنا جبريل ... ثم يمضي كأن لم يجيء ، وكأن لم يكن . بل وينقطع وقتاً طويلاً دون بادرةِ عَودة ....

أهناك فرصة أجود من هذه وأبلغ ليجرّد الرسول يقينه من كل علاقة ويحرره بصورة مطلقة لرب العالمين،ولذات اليقين ..؟؟

أجل ، إن انقطاع الوحي يعني هذا ... ولكأنه يقول للرسول : ليأت الوحي ، أو لا يأتي ..

ليذهب عنك إلى حين ... أو فليذهب عنك إلى الأبد ... ذاك أمر ، لله مَردُّه ومَرجعه .. أما أنت فلتبقَ مكانك من العبادة والنُّسك ... ولْيبقَ يقينك في دائرة تبتّله وتجرُّده ... ولْتبق رُوحُك حيث هي سابحة في فَلك العبودية الخالصة ..

وبكلمة واحدة ... ابق مكانك ، ولا تُرد من الله سوى الله ..!!

* * *

ولقد اجتاز الرسول التجربة بنجاح عظيم ، باذلاً أقصى ما يملك البشر من طاقة — مُعانياً من مقاومة القلق . ومن دعم قُوى الاحتمال والصبر في نفسه ما لا يقدر عليه سوى أولي العزم من المرسلين ..

وبعد حين سيجيئه الوحي في صَلْصَلةِ فرحٍ عظيم ، مستأنفاً معه الرحلة المباركة ، تالياً عليه قول ربه العلي الكبير :

« بسم الله الرحمن الرحيم »
« ن — والقلَم وما يسطرون . »
« ما أنت بنعمة ربك بمجنون »
« وإنّ لك َلأجراً غير ممنون . »
« وانك لعلى خـُلـُق عظيم ... »
لقد نجح « محمد » وفاز فوزاً عظيماً .
نجح رسول الله ، وجاء الوحي يتَوّجه بأكرم وأشرف وأطهر تاج ...
« وإن لك لأجراً غير ممنون »
« وإنك لعَلى خـُلـُق عظيم » .
هل نستطيع أن نتصور بهجة العيد وجلال العيد الذي أقامته السماء لصفيّها ورسولها ، حيث يتلقى فيه بعد طول قلق وتساؤل واصطبار نداء الله العظيم أن : ها أنذا معك من جديـد ومعك دائماً ، يا صاحب الخُلق العظيم ...؟؟!!

* * *

هنيئاً لك ، أبا القاسم ما أعْطِيت وأولِيت ...
وهنيئاً لأمتك بك .
والآن ، فمع وحي الله وسفيره .. لن تـُقلّـب وجهك بعـد اليوم باحثاً عنـه ... فهو معك بإذن ربه ، يتنزّل على قلبك بالنور والفرقان .
فغداً يتلو عليك ..
« يا أيها المزّمّل .. »
« قم الليل إلا قليلاً . »

« نِصْفَه ، أو انْقُصْ منه قليلاً »

« أَو زِدْ عليه ، ورتِّل القرآن ترتيلاً »

وبعد غد ، يأتيك بإعلان البعثة والرسالة والتكليف :

« يا أيها المدَّثِّر »

« قُم ، فأنْذِر ... »

ثم تتوالى روحاته وغدواته . بين السماء والأرض .. بين الله ورسوله .

لسوف يصحبك ثلاثاً وعشرين سنة .

وسوف لا تفتقد أبداً مدَد ربِّك ، ولا صُحْبة خليلك .. وسَتَتِمُّ النعمة لك .. وعليك يا أبا القاسم ...

ولسوف يعطيك ربك فترضى ...

يوم الطائف

(واصْبِرْ ، حَتّى يَحْكُمَ الله)

٣

... لم يدَعْه الوحي يلتقط أنفاسه حين عاد إلى داره يرتجف على إثر لقاء من تلك اللقاءات التي تجددت بعد فترة الانقطاع، فلحق به سريعاً ، يدعوه أن ينهض من تحت غطائه :

« يا أيها المُدَّثِّر »

« قُم ، فأنْذِر »

ونهض من فوره .. فما عاد هناك تساؤل حول المهمة العظمى التي اختير لها ، والتي من أجلها جاءه الوحي أول أمس،وأمس، واليوم ..

« قُمْ ، فأنذر

وربَّك فكَبِّر »

هو إذن رسول الله وخاتم النبيين ..

هو الرسول الذي تنبأ به الأنبياء ، وتحدثت عنه الكتب ، وانتظره الزمان .

فلينهض إذن على بركة ربه مبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه ، وسراجاً منيراً .

ولقد نهض قائماً .. ووجّه لله وجهه وقلبه حنيفاً مُسلماً ..
وراح يدعو لله على بصيرة ، ومعه ذلك الرصيد الباهر والنادر من الخُلق والفضيلة وعظمة الشخصية واستقامتها .

« يا معشر قريش .

« أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تُغير عليكم ، أكُنتم مُصدّقيّ ..؟؟

صاحوا جميعاً بكلمات واحدة :

« نعم .. فما جربنا عليك كذباً قط »

« إذن ، فأنا رسول الله إليكم » .

وحدث وُجوم وهجوم ..

أما الوجوم فقد احتوى الأكثرية في تيهه . وأما الهجوم فقد تولى كِبْرَه أبو لهب في صلف وجهالة ..!!

ومن تلك اللحظة المجيدة بدأت قافلة الإسلام سيرها . تنمو أعداد رجالها وجنودها في أناة وبطء . ولكن في أصالة ورسوخ.

ويأخذ مكان الصدارة فيها « خديجة » و « علي » و « أبو بكر» و « زيد بن حارثة » .

ثم يسارع إليها « عثمان بن عفّان » و « سعد بن أبي وقاص» و « الزبير بن العوّام » و « طلحة بن عبيد الله » و « عبد الرحمن بن عوف » و «بلال» و «خبّاب» و « ابن مسعود » و « عمار » و « ياسر » و « سُمَيَّة » و « سعيد بن زيد » و « فاطمة بنت الخطاب » و « مصعب بن عمير » .

ويُنادي الهُدى رُوّاده ، فيسارعون إليه مُعانقين مصايرهم الشهيدة والمجيدة تحت راية الله ، وبين يدي رسوله .

وينفتح باب دار الأرقم ليستقبل هذه الثُّلَّة المباركة المستخفية من كيد الضلال .

وتلمح قريش بذكائها ما سيكون لهذه الدار المتواضعة المستخفية من خطر عليهم وعلى ما يعبدون .

وتتقيّح كبرياؤهـا ، فتلهث وراء النور تتحداه في سُعار وشراسة .

ويصمد المؤمنون على قلتهم ، فيغطي صمودهم وثباتُهم قريشاً بهوانٍ ما عرفت مثله هواناً .

ويّصيبها الخبال ، فتذهب إلى « أبي طالب » تعرض عليه أن يُقايضها على ابن أخيه بأي فتى يختاره من فتيان قريش البُسْل المغاوير ، ويدرك « أبو طالب » ما أصابهم من جنون ، فيجيبهم في سخرية منهم ورِثاء لهم .

« أتعطوني ولدكم أربيه وأغذُوه

« وأسلمكم ولدي ، لتقتلوه » ..؟!

ويقف العمّ ، والزوجة .. أبو طالب ، وخديجة إلى جانب الرسول بكل ما لهما من جاه واقتدار .

وتفقد الوثنية صوابها ، فتتنادى إلى حِلْف وبيل تقاطع به بني هاشم جميعاً ، وتعزلهم عن الحياة والجماعة في وحشية مُبهظة.

وتُوغِل في صَبّ العذاب على المؤمنين لا تفرّق بين الوجهاء منهم والفقراء ، وإن كان للفقراء من ذلك النصيب الأوفى .

ولكن هناك .. في وجه العاصفة وأمام زئيرها الرهيب كان يقف « رسول الله » باسماً ، مطمئناً .. ينفض بطمأنينته وتهلّله عن كاهله وعن كواهل أهله وأصحابه كل ما تقذف به قريش من أذى وضُر وعذاب .

كانت بسمته الواثقة المستبشرة تملأ أفئدة الخافقين حوله سلاماً وغبطة وأمْناً ..

وكانت إشارة عذبة ترسلها سبّابته إلى الأمام،كافية لأن تملأ قلوب أصحابه بجسارة ترفعهم فوق مستوى كل ما عرفت الدنيا من هول وخطر .

ذلك أنهم كانوا يعرفون ما تقوله هذه الإشارة ، ويؤمنون به أرشد إيمان — لقد كانت تقول لهم :

— لا بأس .. واصبروا .. فغداً النصر .. وبعد غد ، الجنة.

ويصبر المؤمنون . ويصابرون ..

ولكن العزيز عليه عَنَتُهم ، الرؤوف الرحيم بهم — عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام — لا يطيق عذابهم وإن أطاق عذابه، فيأمرهم بالهجرة إلى الحبشة راضياً أن يبقى وحده هدف قريش التي استسلمت لنداء أحقادها استسلام المجانين .

وذات عام ..

وهو عام جدير بالوصف الذي يحمله، إذ نُعِت بعام«الحزن» فقد الرسول عمه الحبيب « أبا طالب » وزوجته الوفية «خديجة».

فقد العم الرجل ، الذي ذاد عنه وضحّى في سبيله كما يذود وكما يضحي أفذاذ الرجال .

وفقد الزوجة التي أعطت من إيمانها وحنانها وجاهها أجزل عطاء ..

والآن ، يخلو الجو لقريش أكثر من ذي قبل ، فتلاحق المصطفى المختار بسفاهاتها الشرسة .

وهي لا تخجل من اقتراف الإهانات الصغيرة الهابطة ضد هذا

الذي كانت تشمّ عبير فضائله ، وتعامله رغم حداثة سنه كما لو كان أميرها وسيدها ..!!

ها هي ذي تغري بــه من سفهائها من يلقون عليه التراب والروث .

وتنحني ابنته العظيمة « فاطمة » فوق ردائه باكية تُميط عنه الأذى وتغسله .

وفي صبر المصطفين الأخيــار يجفف دمعها بكفّه الحانية ، ويقول لها :

« لا تحزني يا بُنيَّة »

« فإن الله مانع أباك » ..!!!

لم يزايله اليقين لحظة أن الله مانعه وحافظه وراعيــه .. ومن ثمّ أسلم لعذابهم واضطهادهم جسده .. أما روحه ، فهيهات لملء الأرض بأساً وحقداً وقوة وبغياً أن ينال منه منَالاً .

وهكذا — شأنه في هذا شأن أولي العزم من الرسل — لم يقاوم اضطهادهم بالصبر فحسب .. بل وبالمزيد من العمل ، وبالمضي قُدُماً على نفس الطريق الذي ملأوه رصداً ، وحراباً، وهولاً ..!!

وذات يوم راح يلتمس لدعوته مؤمنين جدداً ، وفي نفس الوقت يمنح نفسه المرهقة ساعات من الراحة والأمل بإبعادها عن جو الاضطهاد القاتل الذي تصبّه عليه قريش وحيداً ...

وشد رحاله إلى الطائف ..

وكان يوماً عجباً ..!!!

* * *

إن مزايا ذلك اليوم الفريد ودلالاته تستبين من وقائعه وأحداثه ،

فبموت أبي طالب ، أوغلتْ قريش في ركوب أحقادها، وفي ملاحقتها الرسول بالأذى والضُّرّ ..

ولقد صوّر — عليه السلام — هذه الحقيقة بقوله :

« ما نالت مني قريش شيئاً
أكرهه حتى مات أبو طالب » .

هنالك بدا له أن يرحل إلى الطائف ، يبلغ ثقيفاً كلمة الله، ويستنصر بهم حين يسلمون على قريش وجنونها ..

إنه يرفض اليأس ويدحَضُه بالعمل والمثابرة .. وفي نور يقينه بالمهمة التي اصطفاه الله لأدائها راح في حُلكة الأحداث يرى طريقه ويبصر غايته .

وحَمَلَةُ المبادىء الكبيرة ليسوا شجعاناً في أعمالهم وحسب، بل هم كذلك شجعان في آمالهم وأحلامهم . لا سيما إذا كانوا من المرسلين .

وهكذا نرى الرسول عليه الصلاة والسلام يتخطى بآماله وبأحلامه كل عوائق القنوط ودوافع اليأس .

فهو إذ يرى أهله وعشيرته وأعرف الناس بصدقه وأمانته ونبل شمائله واستقامة نهجه .. حين يراهم يكذّبونه ويحاربونه ، لا يستسلم لمنطق اليأس الذي يقول : إذا كان هذا صنيع الأقربين والذين يعرفون .. فكيف إذن يكون صنيع الآخرين .؟

لم يستسلم لهذا المنطق رغم إغرائه ، بل امتدت آماله وأحلامه إلى الآفاق البعيدة التي لا تبشر بخير ولا بعطاء .

أجَلْ .. إنه رسول ، عليه البلاغ .

« إنما أنت مُنذِر » !!
« ولكلّ قوم هاد »

وهكذا ، سافر إلى الطائف .. وهناك بدأ بثلاثة من سادتها وأشرافها راجياً أن يصيروا — إذا هداهم الله لدينه — قدوة تجري ثقيف وراءها .

وكان هؤلاء الثلاثة إخوة وأشقاء ، أبناء عمرو بن عُمير . أقبل عليهم رسول الله يدعوهم إلى الهدى، ويحدثهم عن الإيمان، ويبشرهم بمثوبة الله ورضوانه إذا هم ناصروه وآزروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه . لكنه فوجيء بقلوب أقسى من الصخر . لم يكتف أصحابها بجحود ما يسمعون ، بل جاوزوا الجحود إلى السخرية ، وتحريض السفهاء من أهليهم وعبيدهم على توجيه الإساءات المؤلمة إلى شخصه الكريم .

لقد تخلى سادة ثقيف هؤلاء عن أبسط مظاهر الخُلق العربي— إكرام الضيف الغريب ..!!

لقد كان جوابهم لدعوة الرسول إياهم أن قالوا : [ألم يجد الله غيرك يرسله] ..؟؟ ثم نادوا سفهاءهم وعبيدهم ليشيعوا الرسول بالسباب والسخريات والحجارة يقذفون بها أكرم الخلق وإمام الهُداة ..!!!

ولم يفجعه الموقف على ما فيه من نذالة وسفالة ، بقدر ما توجّسَ من خيفة الشماتة ، ومرارة التشفّي حين يبلغ قريشاً هذا الذي لقيه في الطائف من ثقيف .

ومضى .. تلاحقه مظاهرة السفهاء صاخبة نابحة ، حتى وجد بستاناً فأوى إليه ، وراح يجفف الدم الذي يسيل من عقبيه اللتين أدْمَتْهما حجارة السفهاء .

وأخذه على نفسه الحنان ، فتندّت بالدمع عيناه ..!! إنه منذ

وُلد حتى يومه هذا ، أي طوال ثمان وأربعين عاماً وهو يعيش بين الناس في مهرجان حافل بالحب ، والحفاوة والاحترام .. ثم ها هو ذا اليوم ، يلقى الذي يلقاه .

ولكن،أي بأس إذا كان هذا وأضعافه معه في سبيل الله ..؟؟

أي شرف عظيم أن يناله الضر لأنه يرفع في الأرض راية الحق والهدى والخير ..؟

وأي شيء يجعل الحياة عظيمة ، سوى ألم عظيم ..؟؟

هنالك أسند ظهره إلى إحدى شجيرات البستان ، وبسط كفيه إلى السماء مناجياً ربه وضارعاً إليه :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ،
وقِلَّة حيلتي ، وهواني على الناس »

« يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعَفين ،
« وأنت ربي ، إلى من تَكِلُني ..
« إلى بعيد يَتجهَّمُني ..؟ أم إلى عدو ملكْته أمري؟
« إن لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أُبالي ..!!
« ولكن عافيتَك أوسعُ لي ..
« أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ،
وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي
غضبك ، أو يَحِلَّ عليَّ سخطك
« لك العُتْبى حتى ترضى .
« ولا حول ولا قوة إلا بك » ..!!

إنها معزوفة جليلة ، لروح جليل

إنها ابتهالات رسول أوّاب قدّر الله حقّ قدره، وأسلم وجهه وقلبه وكله لمشيئته ورِضاه .

« إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي »

ولكن ... وحتى لا تَشِي هـذه الكلمات بشيء من الزهو بالقوة، والخيلاء بالقدرة والصمود والاحتمال ، يشفعها على الفور بكلمات تجرد حولَه من حَوْله . وقوته من قوته..وتعلن عبوديته المطلقة لربه ، وحاجته المطلقة لحول الله وقوته ..

« .. ولكنّ عافيتك أوسَعُ لي » !!!

أيّ سكينة نفس.. وأي طمأنينة روح — وأي ذكاء قلب .. في ذلك الموقف الذي يملأ النفس كرباً ويأساً وبؤساً ..؟؟!!!

« لك العُتْبَى حتى ترضى »

« ولا حول ولا قوة إلا بك » !!

***

ولكن ، لماذا يا تُرى تركته المقادير يواجه هذا الموقف البالغ الصعوبة والحرج ..؟

إنه لا ألم أمضّ للنفوس الكبيرة ولا أشقّ عليها من الإهانات الصغيرة .

ان النفوس الكبيرة تحتمل الآلام الكبيرة مهما يكن عَنَتُها وضُرّها في طمأنينة وشموخ .

أما الإهانات الصغيرة التي تجرح كرامتها ووقارها ، فكثيراً ما تكون فوق طاقتها واحتمالها ..

وإنّا إذ نقرأ ابتهال الرسول الذي مرّ بنا من قريب لنكاد نُحسّ مذاق المرارة وطعمها في قوله :

[وهَواني على الناس] ...

فلماذا تُرك الرسول لهذه المحنة القاسية ..؟

إنه درس يوم الطائف العظيم ..

إنه الدرس الذي يعلّم الحيـاة ويعلم الأحياء أن آلام ذوي المبادىء الصادقة وتضحياتهم ليست الطريق إلى سيادة هذه المبادىء وحسب ...

بل هي من صميم تلك المبادىء وجوهرها .

هي جزء من ذاتها وتكوينها — فلا حقيقة بغير ألم وتضحية ..

ولا فضيلة بغير ألم وتضحية ...

ووفق الطراز الذي تكون منه الرسالة ، ويكون منه صاحبها وحاملها — تكون الآلام وتكون التضحيات نوعاً وكَمّاً ..

من أجل هذا ، كان الوحي يعني ما يقول حين نادى الرسول ليلقي عنه دثاره وقال له :

[ولربك فاصبر]

إنهما كلمتان اثنتان .. بيد أن لهما رهبة تنذر بجسامة التضحية التي سيكون عليه أن يبذلها ويحتمل كل ظروفها .

وفيما بعد .. وعلى طول طريق الرسالة سيظل الوحي يذكّره بهذه الوَصاة .

[فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل]

أجلْ — أولوا العزم . فالأمر يتطلب صبراً فوق كل المستويات المألوفة للناس !!

والألم الذي يجابه أولي العزم من المرسلين لا يحمل تعويضاً ولا عزاء في كل حين .. أي أنه لن يكـون دائماً من تلك الآلام

التي تطرحها عداوة الأنداد والأكفاء ، وفي مستوى لا يهين كبرياء الروح وإن أرهق الجسد بالعذاب ... لا ، لن يكون كذلك دائماً ، بل سيجيء أحياناً خلواً حتى من هذا العزاء . سيجيء في صورة إهانات صغيرة وشاملة ، تتمثل في إخراج الألسنة وحك الأنوف ، وقذف الشتائم والسخريات ، وتحريض السفهاء والغلمان والمجانين يحصبون بالحجارة ، ويحثون التراب ويهللون ويصخبون ويعربدون !!!

***

لم يكن ذلك الذي لقيه الرسول في الطائف عقاباً له ولا لفت نظر لخطأ اجترحه . فهو – عليه السلام – لم يخرج من مكة إلى ثقيف إلا استمراراً لعملية التبليغ والنذارة التي أمر بها .

فتركُه يعاني هذا الموقف إذن ، لم يكن إلا درساً من دروس النبوة ومشهداً من مشاهد القدوة التي تترك للأجيال عبْر القرون ذُخرها ونهجها وهداها ..

إنه درس لكل من سيقدّر له أن يحمل راية الحق والهدى والإيمان ، كي يبذل بذل السماح كل ما يملك عزمه الوثيق من تضحيات ، وأن يحتمل في صبر وشجاعة كل ما يُطرح عليه من أوصاب وآلام .

هو درس لهؤلاء جميعاً .

وهو عزاء صادق لهم عن كل ما يلقون من جحود وسخرية وهوان .

وهو نذير لهم بأن ما ينعمون به من عظمة الشخصية وعظمة

العقيدة لن يجعلهم بمنجاة من الإهانات السافلة التي تُغثي النفس وتغيظ الروح ..!!!

* * *

جلس الرسول — كما ذكرنا — يشكو إلى ربه ضعف قوته وقلّة حيلته وهوانه على الناس ، ويكشف آماد ثباته العظيم بقوله:

[إن لم يكن بك غضب عليّ ، فلا أبالي]

كما يكشف عن حقيقة عبوديته لله واعتماده عليه بقوله :

[ولكنّ عافيتك أوسع لي]

ويبصره من بعيد صاحبا البستان، فيدعوان خادماً لهما ويأمرانه أن يحمل إلى الرسول طبقاً فيه قطف كبير من عنب .

ويذهب الغلام ، واسمه «عدّاس» وكان نصرانياً ، حاملاً طبق العنب إلى رسول الله ، واضعاً إياه بين يديه .

ويغمره الرسول بضياء من ابتسامته الشاكرة . ثم يبسط يمينه نحو قطف العنب قائلاً : [باسم بالله]

باسم الله ...؟؟

لقد أثارت هذه « البسملة » دهشة الغلام وعجبه . وعلى الفور دار بينه وبين الرسول هذا الحوار .

قال عدّاس : هذا والله كلام لا يقوله أهل هذه البلاد .

وقال الرسول : فمن أي البلاد أنت ..؟ وما دينك .؟

أجاب عدّاس : أنا نصراني ، من أهل نينَوى .

قال الرسول : من بلد الرجل الصالح،يونس بن متّى ..؟؟

قال عداس : وما علمك بيونس بن متّى ..؟

قال الرسول : إنه أخي . كان نبياً ، وأنا نبي مثله .

تقول الرواية التاريخية التي تروي لنا هذه الواقعة :

[فأكبّ عدّاس على رسول الله صلى الله عليه وسلم . يُقبّل رأسه ، ويديه ، وقدميه] ..!!

وأراد القدر الحكيم أن يجعل من هذا المشهد الفريد درساً آخر مجيداً من دروس يوم الطائف، مقدماً النموذج البشري الذي سيقع عليه اختيار السماء ليحمل رايتها في الأرض .

لقد أراد الرسول حين نزل الطائف أن يوفر على نفسه أحقاد أشرافه وعليته حين يرونه لا يبدأ بهم ومعهم الزيارة والحديث.. أراد أن يشعرهم بأهميتهم له ولدعوته ، فنزل أول ما نزل ببيت من بيوت الزعامة في ثقيف ، فما كان جواب أهل هذا البيت إلا حطة ونذالة .

وحين احتمى بالبستان من غوغائية المهرجين الذين سُلطوا عليه لم يحرك صاحبا البستان (عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة) ساكناً من أجل الاستماع له ، وتفهم أمره . وهما أيضاً أصحاب جاه وزعامة في قريش والطائف معاً .

وفجأة .. ومن رُكام هذا الضلال الساخر يُخرج القدر خبّأه العظيم غلاماً فقيراً أجيراً ، ليس له جاه ، ولا ثراء ، ولا منصب . يقرأ وجه الرسول في لحظة . ثم يستيقن صدقه ، ويعطيه كل قلبه ويقينه وحبه وإيمانه في اللحظة التالية ..!!

وهكذا أجاد القدر التوقيت ، كما أجاد الاختيار ، كما أجاد صُنع الإرهاص ..

ففي نفس اللحظة التي كانت الأرض تقدم له فيها أقصى ما معها ، من برّ ممثلاً في قطف عنب ، كانت السماء تقدم إليه أولى نفحاتها ممثلةً في هذا الروح الذي يهتز إيماناً وحباً وعظمة..!!

وفي نفس الدقائق التي أعرض عنه فيها المستعلون في الأرض، وأغروا به سفهاءهم ، قدَّم القدَر في شخص «عدّاس» صورة البسطاء الكادحين الذين سيكونّن منهم جنده وحزبه ورَعيلَه .

أجل .. لقد كان ظهور « عدّاس » في تلك اللحظة إرهاصاً بالمفاجآت الباهرة التي ستكتب تاريخ الإسلام ورسوله ، وتتضمن انتصارهما العظيم .

كان ظهوره في تلك اللحظة إرهاصاً بنوع البشَر الذين يدّخرهم الغيب لنصرة هذا الدين وهذا الرسول، من البسطاء الشرفاء الذين لا تقع عليهم الأعين في زحام الحياة .

كذلك كان ظهوره إرهاصاً بالمودّة والنصرة اللتين سيظفر بهما الإسلام من النصارى أتباع المسيح .

« .. ذلك بأن منهم قِسِّيسِين ورُهباناً ، وانهم لا يستكبرون » .

« وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عَرفوا من الحق ، يقولون ربَّنا آمَنّا ، فاكتُبْنا مع الشاهدين » .

* * *

وغادر الرسول الطائف راجعاً إلى مكة ، بعد أن استغرقت رحلته السريعة هذه بضعة أيام تغيرت قريش خلالها ، وكأنها شهور أو أعوام .

لقد وجدهم الرسول حين عاد إليهم يتميزون غيظاً، ويشتعلون حقداً .. ورأى أنيابهم تصطلك وتتهيأ للافتراس .

ولكنه كان قــد حَذِق درس الطائف ؛ فمن ظلام اليأس

الدامس، ينبعث أمَل .. ومن تحت وطأة الضلال والإفك تنهض أرواح خيِّرة تعانق الحق والنور ..

وكان قد اتخذ من محنة الطائف مَزِيَّة .. أليس قد خرج إلى هناك ليدعو أهل ثقيف الى الله ، فجابهته الوثنية بغدرها ومكرها ، آملة أن تفتّ في عَضده ، وتَفُلّ باليأس عزمه.؟

إذن فليكن تحدّيه لها ماثلاً في نفس الصورة وذات الوسيلة.. الخروج إلى القبائل، وملاقاة الغرباء الذين لا يعرفهم ولا يعرفونه، وعَرْض الإسلام عليهم في تفانٍ ومُثابرة .

وكانت مواسم الحج خير فرصة لتحقيق ما يريد .

وسوف يلقاها جميعاً قبيلة بعد قبيلة .. هاتفاً بينهم وفيهم :

« .. إني رسول الله إليكم ..

« يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد .

« وأن تؤمنوا بي ، وتصدّقوا بي ، وتمنعوني حتى أبلّغ عن الله ما بعثني به » .

وسوف ترفض القبائل وتهرب من النور .. وحتى الذين سيعرفون منهم أنه الحق ، سيدخلون مع الرسول في مساومات يرفضها من فوره ، كما حدث مع [بني عامر بن صعصعة] .. لم يكد الرسول يدعوهم إلى الإسلام حتى نهض واحد من شيوخهم، توسّم في النبي الصدق والنبوة ، وصاح في قبيلته بكلماته هذه : [والله . لو أخذت هذا الرجل من قريش لأكلتُ به العرب].

ثم قال للرسول عليه السلام :

« أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على

من خالفك ، أيكون لنا الأمر مِن بعدك ..؟

فأجابه الرسول :

[الأمر لله ، يَضَعَهُ حيث يشاء]

انه دين لا صَفقة ...

وحتى في ساعات وحدته هذه وعُسرته هـذه ، يرفض أن يعطي قبيلة كبيرة كهذه مجرد أمنية دنيوية يكسب بهـا نصرتهم وحمايتهم ، لأن القضية قضية الله ، وهي أجلّ من أن تتحول الى صفقة وموضوع مُساومة ..

ويمضي للقاء القبائل في كل موسم حج ، وكل تجمُّع لهم خلال أسواقهم المشهورة وأعيادهم الحاشدة ، يدعو .. ويُحارب ، حتى يأتي يوم موعود يجمعه الله فيه بمن اختارهم سبحانه ليكونوا أنصاره الأبرار ..

يوم العقبة

(هو الذي أيَّدَكَ بنصره ، وبالمؤمنين :)

٤

.. وأخيراً ، اقترب الوعد الحق . وأوشكت سنوات مكة أن يُطوى كتابها ، ليبدأ في المدينة عهد جديد .

وهنا نلتقي بأهمية « يوم العقبة » ومزيته الكبرى .. فهو اليوم الذي يشير إلى نهاية عهد وبداية عهد آخر : نهاية عهد الاضطهاد والتعذيب والمطاردة من جانب قريش ، والانكسار والاحتساب والصبر من المؤمنين .. وبداية عهدٍ :

[أُذِنَ للذين يُقاتَلون ، بأنهم ظُلِموا
وإن اللهَ على نصرهم لقدير] ...

أجل .. كان يومُ العقبة ذاك، يومَ الإسلام العظيم .. فلولاه ما كانت الهجرة إلى المدينة ، ولولاه ما كانت سنوات المدينة العشر التي غزا النبي خلالها غزواته الموفقة الظافرة ، وأرسى خلالها الأسس الوثقى لعالَم الإسلام والمسلمين ..!!

فيوم العقبة كان الفَجْرَ الصادق لعصر القوة والغلَبة والعزة التي أفاءها الله على رسوله ودينه والمؤمنين .

وهو يوم امتلأ بتخطيط وإنجاز أكثر مواقف الإسلام حزماً وحسماً .. وذكاء ومضاء .. ومخاطرة وتوفيقاً ..

* * *

ولقد شهدت « العقَبة » أياماً ثلاثة في أعوام ثلاثة .. كذلك شهدت بيعتين في عامين متتاليين ..

ونحن هنا نختص بالحديث يوم العقبة الأخير . وهو الثالث بالنسبة للأيام التي التقى فيها الرسول بطلائع أهل المدينة .. والثاني بالنسبة لليومين اللذين شهدا البيعة التي تمت بين الرسول وطلائع الأنصار ، أي اليوم المعروف في كتب السيرة بـ « بيعة العقبة الثانية » .

وطبيعي أن اللقاءات الثلاثة التي شهدتها العقبة بين الرسول والأنصار إنما تشكل في فحواها الأخير لقاءً واحداً ، ويوماً واحداً ، رغم ما بينها من مسافة زمنية .

من أجل هذا، فإن الحديث عن أيٍّ منها ، يتضمَّن تلقائياً الحديث عنها جميعاً .

* * *

بدأ ذلك اللقاء العظيم في السنة العاشرة لبعثة الرسول عليه الصلاة والسلام ، عام (٦٢٠) للميلاد ..

وكان الرسول عليه السلام قد واصَل عَرْض نفسه على قبائل العرب ، وأعطى مواسم الحج أهمية وعناية ، فثَمَّ قبائل من كل أطراف الجزيرة يستطيع أن يلتقي بها ويبلغها كلمات ربه.

وفي مَوسم الحج ، في العام العاشر من بعثته التقى بنفر من حجاج المدينة جلس إليهم وسألهم عن موطنهم ؟ فأجابوه أنهم

من المدينة ، ومن الخَزْرَج إحدى أكبر قبيلتين تقطنان المدينة وتَسُودَانها .

قال لهم عليه السلام :

[أفلا تجلسون أكلّمكم] ..؟؟

واستجابوا لرغبته ، فدعاهم إلى الله ، وحدّثهم عن الدين الحق وأودع صدورهم قبساً من النور الذي معه .

ويشاء الله الذي لا تُدرَك حكمتُه ، ولا تُغلَب مشيئته ، أن يكون اليهود الذين سيصيرون فيما بعد ألَدَّ أعداء الرسول ودينه .. يشاء الله أن يصطنع منهم السبب والحافز وراء إقبال أهل المدينة على الإسلام ودخولهم فيه أفواجاً .

ذلك أنهم – أي يهود المدينة – كانوا في صراع دائم ضد الخزرَج والأوس ، وضد الخزرج بصفة خاصة .. وكان هؤلاء وثنيين يعبدون الأصنام ، بينما اليهود أهل كتاب وأتباع رسول.

ولقد كانوا كلما احتدم النزاع بينهم وبين الآخرين توعدوهم بظهور نبي قرُب أوانه ، تبشرهم التوراة بقدومه .. قائلين: إنه حين يظهر سيكونون من أتباعه وأنصاره ، ولسوف يقاتلون تحت رايته الخزرج والأوس جميعاً حتى يُخضعوهم أو يُبيدوهم ..!!

ولقد بدأ الرسول حديثه إلى هؤلاء النفر من الخزرج بسؤال يتألق نوراً وإلهاماً .

لقد سألهم :

[أمِن مَوالي يهودَ أنتم] ..؟؟

وهكذا ، وبهذا السؤال وضع المؤشّر تجاه الموجة المطلوبة ، فآتت أثرها الحاسم العجيب .

لقد بلّغهم الرسول دعوة الله في إيجاز ويُسْر ، وأعطاهم الفرصة ليفكروا ويتدبروا ..

وفيما هم يتشاورون ، ذكّرهم سؤال الرسول بما كان اليهود يتوعدونهم به دوماً ، فقال أحدهم :

« يا قوم ..

« والله إنه للنَّبِيّ الذي توعَّدَتْنا به يهود .

« فلا يَسْبِقُنَّكُم إليه » .

وعادوا إلى النبي ، يخبرونه أنهم قد تقبّلوا أحسن قبول ما عرض عليهم من هدى ونور ، وقالوا له :

« إنّا تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر مثلُ الذي بينهم .

« وحين نرجع إليهم سندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين .

« فإن يجمعهم الله بك ، فلا رجل أعزّ منك . »

ولم يتم بينهم وبين الرسول بيعة .. لقد أعلنوا إيمانهم وتصديقهم ووعدوا بإبلاغ مَن وراءهم من الأهل والعشيرة .

وعادوا إلى بلادهم مُباركين ..

كانوا ستة رجال .. ما أجمل أن نُشرّف ونُزين هذه الصفحات بأسمائهم الميمونة .

إنهم :

أسعد بن زُرَارة .

وعوف بن الحارث بن رفاعة .

ورافع بن مالك بن العجلان .

وقطبة بن عامر بن حديدة .

وعقبة بن عامر بن زيد .

وجابر بن عبدالله .

وإنّا إذ نذكرهم برضوان الله وبركاته ، لنذكر فيهم ومعهم إخوانهم الذين سيأتون على أثرهم ويدخلون في دين الله أفواجاً.

***

عاد الرجال الستة إلى المدينة ، وكان اسمها « يَثْرِب » ، فحدثوا قومهم بما رأوا من نور الرسول ، وبما سمعوه من حديثه الصادق المضيء .

وفي موسم الحج من العام التالي،جاء منهم إلى مكة اثنا عشر رجلاً ، بينهم خمسة من الستـة الذين شهدوا اللقاء الأول مع رسول الله .

واجتمع بهم الرسول في نفس المكان ، وبايَعهم « بيعة العقَبة الأولى » .. وكانت كما يحدثنا عنها « عُبادة بن الصامت » أحد المبايعين :

« كُنتُ فيمن حضر العقَبة الأولى ..

وكنا اثني عشر رجلاً ..

فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عـلى ألاّ نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف ..

وقال لنا الرسول :

« إن وفّيْتُم ، فلكم الجنّة ..

وإن غَشيتُم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل

إن شاء عذّب .. وإن شاء غفر » ..

وأحسّ الرسول بنور بصيرته ، وبما سمع من مُبايعيه أن رياح الإسلام بالمدينة تجري رُخاء ، وأن المسلمين الجدد بحاجة إلى معلم وفقيه ، فاختار من بين أصحابه « مُصعب بن عمير »[1] فصحب وفد الأنصار إلى المدينة ، وهناك فتح الله له وعلى يديه فتحاً عظيماً ..

وفي موسم الحج من العام التالي . كان « مصعب بن عمير » يدخل مكة ومعه ثلاثة وسبعون رجلاً كلهم يشهد ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ... وامرأتان مباركتان دخلتا في الدين الجديد ، وجاءتا تسابقان الشوق إلى رؤية الرسول الكريم .

هاتان السيدتان هما :

* أم عمارة : نسيبة بنت كعب *

* أم مَنيع : أسماء بنت عمرو *

وبمحضرهم إلى مكة ، وبلقائهم مع رسول الله ، كان يوم العقبة العظيم ..

***

كانت مكة تموج بوفود الحاجّين إليها وإلى أصنامها .. ولم يكن أهلها يدرون أن قريشاً تعيش آخر أيام صلَفها وجبروتها وغرورها !!

---

(١) راجع كتابنا « رجال حول الرسول » مصعب بن عمير — أول سفراء الإسلام .

وكان المسلمون الخمسة والسبعون القادمون من المدينة يقيمون في خيامهم مع مواطنيهم من أهل المدينة الوثنيين الذين لم يتعرفوا للإسلام بعد .

وخلال أيام التشريق ، وبعــد الفراغ من الحـج اتصلوا في سِرِّية كاملة محكَمَة برسول الله عليه الصلاة والسلام وواعدوه على اللقاء عند العقَبَة ذاتها، التي شهدت من قبل لقاءين مُباركين .

ولندَع الصحابي المبارَك « كعب بن مالك » يروي لنا هذه الفقرة من النبأ العظيم :

« .. فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ..
حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لمعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نتسلَّل تَسَلُّل القَطا مُسْتَخْفِين، حتى اجتمعنا في الشِّعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائنا — نُسيبة بنت كعب ، وأسماء بنت عمرو ..

« فاجتمعنا في الشِّعب ننتظـر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحَبَّ أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له .

« فلما جلس — كان أول متكلم — العباس بن عبد المطلب ... »

***

في هدأة الليل وسكونه .. وعلى حين غفلة من قريش المتربصة المتحفزة تمّ أخطر وأعظم اجتماع في حياة الإسلام كله ، وفي

حياة التاريخ الإنساني الذي أثّر الإسلام في تكوينه وأسهم في صُنعه ..

وفي ذاك المؤتمر المجدود ، همَس القدر في أُذن المستقبل ، فإذا أبوابه تتفتح على الرحاب مستقبلة كتائب الله ..!!!

وفي ذاك المؤتمر المجدود، تألّقت عبقرية القيادة والتنظيم لدى رسول الله وعمه العباس .

لقد اصطحب الرسول عمه العباس لينتفع برجاحة عقله وذكاء فؤاده في هذا الموطن الذي لم يكن أحد يعرف أبعاده الهائلة مثلما يعرفها رسول الله ..

وسواء كان العباس يومئذ مسلماً يخفي إسلامه — كما تقول بعض الروايات التاريخية — أم لم يكن أسلم بعد .. فقد كان عظيم الحدَب والعطف على الرسول وصَحْبه .

والآن ، وقد أطلعه الرسول على هـذا الاجتماع الممعن في السرّية والتخفّي ، والبعيدة آثاره وأخطاره ، فقد كان شهوده الاجتماع أمراً محتوماً .

ولقد بدأ هو الحديث فقال :

« يا معشر الخزرج ..

« إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، فهو في عز ومَنَعَة .

« وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللُّحوق بكم ..

« فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليـه ، ومانِعوه ممن خالَفه ؛ فأنتم وما تحملتم من ذلك ..

« وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِموه وخاذِلوه بعد خروجه إليكم ؛ فمن الآن فدعوه » ..

ولم يكد يتلقى منهم إجابة مُطَمْئنة،حتى شفعها بهذا السؤال الذكي الحصيف :

قال ونظراته الثاقبة تقرأ أفكارهم وملامح وجوههم :

« صِفُوا ليَ الحرب ..

« كيف تقاتلون عدوكم ؟؟!!

إنه[1] يريد أن يطمئن لكفاءتهم في القتال ، بعد أن اطمأن لإخلاصهم في الإيمان .

وأثار السؤال كوامن الاعتداد في صدور الرجال ، فبادر أحد شيوخهم وهو عبدالله بن عمرو بن حرام بالجواب :

قال :

« نحن والله أهل الحرب .

غُذِينَا بها ، ومرِنَّا عليها .

وورثناها عن آبائنا ، كابراً عَن كابر » .

ثم راح بعد هذه المقدمة الحارة المتحمِّسة المنفعلة ، يصف أسلوبهم في الحرب .

« نرمي بالنبل حتى تفنى ..

« ثم نُطاعِنُ بالرماح ، حتى تُكسَر ..

« ثم نمشي بالسيوف ، فنضارب بها ،

حتى يموت الأعجلُ منا ، أو مِن عدونا » .

---

(١) راجع كتابنا : « رجال حول الرسول »

« العباس بن عبد المطلب — ساقي الحرمين »

وشاعت الغبطة فوق مخايل العباس ، وقال :

« أنتم أصحاب حرب إذن ..

فهل فيكم دروع ..؟؟»

قالوا :

نعم .. لدينا دروع شاملة » .

ورأى العباس رضي الله عنه وعنهم أجمعين — أنه قد هيّأ سُبُل الحديث ليواصله رسول الله ، فيمم وجهه صَوْب الرسول في صمت ، وحنى رأسه في إصغاء .

وتبسّم الرسول ، وعيناه الوادعتان توزعان ضياءهما وحنانهما على أصحاب العقَبَة المباركين .

وأومأ إليهم ليتحدثوا .

ولكن أصواتهم تلاقت على هذه الكلمات .

« تكلّم يا رسول الله .

فخذ لربك ولنفسك ما أحببت .. »

وانفرجت شفتاه عن أصدق حديث .. وتدفّق النور من بين ثناياه ..

بدأ ، فتلا بعض ما أنزل عليه من القرآن العظيم .. ثم راح يحدثهم عن الله ، الواحد الذي لا شريك له ، وعن الإسلام ، الدين الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهدي إلى صراط العزيز الحميد .

ثم قال مُبايعاً :

« أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون

منه (أهليكم) وأبناءكم » ..

وسارع « البراء بن معرور » فأخذ بيده الكريمة ، وقال :

« نعم ، والذي بعثك بالحق ...

« لنمنعنّك مما نمنع منه (أنفسنا) ..

« فبايِعْنا يا رسول الله ...

« فنحن والله أبناء الحروب ، وأهل الحلْقة ورثناها كابراً عَنْ كابر » ..

ونهض « أبو الهيثم بن التيهان » فقال :

« يا رسول الله ..

« إن بيننا وبين (اليهود) حبالاً ، وإنا قاطعوها ..

فهل عسَيْتَ إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك

الله ، أن ترجع إلى قومك وتدَعنا ..؟؟

فتهلّل وجه الرسول بابتسامة مشرقة وشاكرة ، ثم قال :

« بل الدّم الدم ..

والهَدْم ، الهدم ...

« أنا منكم ، وأنتم مني ..

أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم .. »

وعبارة « الدم الدم ، والهدم الهدم » تعني أن ذمتي ذمتكم ، وحرمتي حرمتكم ، وعهدي وعهدكم سواء .

تعني : أن المحيا محياهم ، والممات مماتهم ..

ثم نهض « العباس بن عُبادة الأنصاري » فقال موجهاً الحديث إلى زملائه الأنصار :

« هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ..؟؟

يا معشر الخزرَج ..

« إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس .
« فإن كنتم إذا أنهكت أموالكم ، وقُتل أشرافكم أسلمتموه ، فمن الآن .
« فوالله إن فعلتم لهُوَ خزي الدنيا والآخرة ..
« وإن كنتم وافُون له رغم نَهْكَة الأموال وقتل الأشراف ، فخذوه .. فهو والله خير الدنيا والآخرة » .

فصاحوا جميعاً :

« إنا نأخذه ، على مصيبة الأموال وقتل الأشراف » .

ثم نادى بعضُهم :

« فما لنا يا رسول الله إن نحن وفَّيْنا بذلك ؟ »

وأجاب الصادق الأمين بكلمة واحدة :

« الجنة » ...!!

وفجأة تحول المؤتمر المستخفي ، إلى مهرجان يدوي في جنباته هذا النداء .

« ابسط يدك يا رسول الله نبايعك »

وتسابقت الأيدي إلى يمينه المباركة تشدُّ عليها في ميثاق عظيم ، وحُب حَميم .

***

وتقدمت عبقرية التنظيم التي تتمتع بها شخصية الرسول الكريم تقدمت لتكمل العمل المجيد .

لقد ألقى الرسول نظرة على هذه الطليعة المبشّرة الواعدة ..

لقد كانوا في حساب العد ثلاثة وسبعين رجلاً ، وسيدتين ..
ولكنهم في حساب القيمة طَلْعُ أمة عظمى تتشكل الآن وتتكوّن . !!

وحتّى لو نظرنا إليهم بحساب العدد وحده ، فإن الرسول بفطنته وبمقدرته لا يدع هذا الرّعيل خارج دائرة النظام المحكَم الفعّال .

هنالك قال لهم :

« أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً ،

ليكونوا على قومهم بما فيهم » .

واختاروا اثني عشر نقيباً ، سيكونون مسؤولين ، لا عن بقية أصحابهم من الخمسة والسبعين فحسب .. بل وعن المؤمنين القادمين مع الأيام ممن سيفتح الله صدورهم للإسلام عمّا قريب ..

وكانت حكمة بالغة ومقصودة من الرسول ، إذ فوّض إليهم اختيار النقباء .

كما كانت حكمة بالغة ومقصودة أن جعلهم اثني عشر نقيباً ، حتى يوسّع دائرة النفوذ والمسؤولية ، وينفي عنها وطأة التفرّد والتركيز .

* * *

تمت البيعة .. وتم اختيار النقباء. وشهد الليل الهادىء الصامت ذلك المؤتمر الفريد المجيد .. ولم يبق إلا أن يعود المجتمعون إلى خيامهم ، متسللين كما جاءوا تسلّل القطا ، قبل أن يشيَ بهم ضوء الفجر وتباشير الصباح .

وهكذا دعاهم الرسول للرجوع إلى رحالهم .. لكن وقدة الحماس للحق ، شقّ عليها أن تُرجىء يوم الفصل والصدام ، فصاح العباس بن عُبادة الأنصاري قائلاً :

« والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل مِنى غداً بأسيافنا » .

فقال الرسول في هدوء :

« لم نُؤمَرْ بذلك ...

« ولكن ، ارجعوا إلى رحالكم » .

إن ضبط النفس ، كان من أروع مزايا الرسول الكريم ، ولقد شهدنا وسنشهد تألق هذه المزية في كل المواقف التي تطلبتها فألفَتْها دائماً مهيأة للعمل الحكيم العميم .

لقد عاد القوم إلى خيامهم قبل أن يرسل الفجر نوره الكاشف، وطلع النهار ، فإذا قريش تتهامس بما كان ، وعلا الهمس حتى صار خبراً أمضّ أنفسهم وأزعج أمْنَهم ، فخفّ بعض زعمائهم سراعاً إلى خيام الخزرجيين .

« يا معشر الخزرج ..

« إنه بلَغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ..

« وإنه ما من حَيٍّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم » .

وفوجيء مشركو الخزرج بالنبأ ، فراحوا يقسمون ما حدث من ذلك شيء .

ولقد صدقوا .. فهم أنفسهم لا علم لهم بما حدث بالأمس . لقد غادرهم المؤمنون منهم بعد أن ناموا ، وعادوا إلى الخيام قبل أن يستيقظوا .. آخذين مضاجعهم بينهم كأن لم يبرحوها.. ! !

وعاد زعماء قريش يجترّون الحيرة والشك ، ولكنهم واصلوا بحثهم حتى تأكد لديهم النبأ العظيم ، فطار صوابهم ، وخرجوا في أعقاب الحجيج الذين كانوا قد بدأوا رحلة العودة إلى بلادهم بعد أن أدوا شعائر الحج ومَناسكه .

كان الركب قد أوْغَل في الطريق ، فلم يدرك القرشيون منهم سوى اثنين هما : سعد بن عبادة ، والمنذر بن عمرو .. وكانا من النقباء الاثني عشر .

فأما المنذر ، فقد قاوم واستطاع الفِرار منهم .. وعادوا إلى مكة بسعد بن عبادة يضربونه ويعذبونه ، حتى اكتشفوا أنه من زعماء الخزرج ، وأنه طالما حمى لهم قوافلهم الغادية إلى الشام والرائحة منها ، فأطلقوا سراحه وتركوه يرحل عنهم في سلام.

***

وهكذا تَلقّت قريش أُولى الضربات المربكة والموجعة .. وجّهها إليها في هدوء وصَمت وقوة ، رسول الله الذي طالما اتخذوه هو وأصحابه هدفاً لأحقادهم واضطهادهم .

لقد عاشت قريش اثني عشر عاماً توجه ضرباتها في تَشفٍّ وغرور . واليوم يجيء دورها لتلقّي ضربات القصاص العادل المشروع .

ها هوذا بلد حافل يفتح ذراعيه ليكون وطناً آمناً للدين الجديد الذي ضاقت به قريش وازْوَرّت عنه في جهالة وعِناد .

وغداً ، يهاجر إلى هذا البلد الوَدود ، المؤمنون من أهل مكة ، ريثما يلحق بهم بعد غد رسولهم الحبيب .

وهناك تتحرر حركتهم من كل قيد ... وللمدينة استراتيجية هامة ، فهي تمسك بناصية الطريق الذي تجتازه قوافل مكة التي تغدو بتجارتها وتروح بين مكة والشام .

ودارت الأرض بقريش وهي تدير خواطرها حول هذه المفاجأة التي أذهلتها ، والاحتمالات الخطيرة التي تفزّعها .

وراحت تقاوم هجرة أصحاب الرسول ، لكنها غُلبت على أمرها ..

وأخيراً عقدت عزمها المخبول على اغتيال الرسول .. ولكن الله مُتِمٌّ نورِه ولو كَرِه الكافرون .

***

لقد أنجز الرسول يوم العقبة عملاً تناهى في البراعة، والحنكة والسَّداد .

لقد فَضَّ لِقاء العقبة وبيعَتُها ذلك السامر الطائش الذي ظلت قريش تملؤه طوال اثني عشر عاماً بسخرياتها العابثة من دين الله ورسوله ، والمؤمنين .

والآن .. ومع بزوغ يوم العَقَبَة في تاريخ الإسلام، فلن يكون لقريش سامر ، وستموت بَسَماتها المغرورة فوق شفتيها ..!!

أجَل .. لن تتلهّى قريش بعد اليوم بعذاب ضحاياها ، بل ستشغل بالخطر الزاحف، يحمل لقُوى الشرك فيها مصارعها ومناياها.!!

يوم حمزة

(وَما أَصابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ، فَبِإذْنِ الله)

ذاك يوم يصعب وصفه ..

يوم مشحون بكل ما هو مؤلم ، ومُعَلِّم ، ومثير ..

ويوم «حمزة» هذا ، كما نسميه الآن، هو المعروف في تاريخ الإسلام بيوم « أُحُد » ..

وإنما ننعته هنا بيوم « حمزة » لأن غزوة أُحُد ليست غرض حديثنا في هذه الصفحات .. ، إنما غرض الحديث وموضوعه واقعة من أكثر وقائـــع هذه الغزوة وذلك اليوم إثارةً للوجدان التاريخي وأكثرها دلالة على شخصية الرسول وطبيعة الرسالة .

هذه الواقعـة المتمثلة في مصرع « حمزة » واستشهاده ، وفي الضراوة البَشعـَة التي تشفـَّت بها أحقاد قريش من جثمانه ..

ثم في مشهد الرسول وهو يرى جثمان عمه الحبيب مبقور البطن ممزق الإهاب .

ثم ...

ولكن لا ، فلنعد للحديث من أوله ومُبتكـَرِه .

* * *

لقد هاجر الرسول إلى المدينة ، وبين أهلها الأنصار المباركين استقر هو وأصحابه ، متخذاً من المدينـــة عاصمـةً لدينه ولأمّته الجديدة .

لقد صار المؤمنون بعيدين من سياط قريش وعذابها ، لكن ذلك لم يكن يعني أن المصاعب هادنتهم ، فما أبعد هدنة المصاعب عن أصحاب المبادىء والرسالات .

لقد كانت أعظم مزايا الهجرة في أيامها الأولى انها قدمت لهم وطناً يعبدون الله فيه دون أن يُفتنوا عن دينهم بإرهاب أو بعذاب .

أمّا بعد هذا ، فقد كانت مشقات الحيـاة وسُنن التمحيص والابتلاء في انتظارهم لتجعل منهم قدوة خفاقة ، ووثيقة صادقة ، تحكي للأجيال عَبْر الزمان : ماذا تعني معارك الحق ..؟ وماذا تتطلب من جُهد وشَظَف وتضحية وفِداء ..؟!!

لقد وجدوا المدينة حين قدموها تعاني من وباء الحمى ، فأصابهم منها البلاء والسقم والرهق ، فما تشاءموا ولا تطيّروا .. بل قاوموا وصابروا ..

ومـا كادوا يستقرون بالمدينـــة حتى أخذ يهودها ومُنافِقوها يكيدون لهم ويسخرون منهم ويأتمرون بهم .

لقد شنّوا على الدين الجديـد الحق ، وعلى حمَلَة رايته من المهاجرين والأنصار — والمهاجرين بصفة خاصة — حرب أعصاب سافلة وماكرة ، بيـد أنهم كانوا عاجزين عن تصعيد حــرب الأعصاب ومناورات التشكيك إلى حملات اضطهاد وتعذيب كما كان كفار قريش يصنعون .. وهكذا ، كان على الرسول أن

يواجه في المدينة سيلاً لا يؤذن بانتهاء من مناورات أحبار اليهود وزعمائهم رغم ما أعطاهم من عهد وأعطوه من ميثاق .. وسيلاً من لغو المنافقين الذين تظاهروا بالإسلام .

[يُخادِعون الله ، وهو خادِعُهم]

ووقف الوحي لهؤلاء ولأولئك بالمرصاد يكشف خبأهم ، ويفضح مكرهم ، ويشدُّ يقين المؤمنين .. ويزيد الذين اهتدَوْا هُدًى .

وبين الحين والحين . كانت قريش ترسل بعض طلائعها يتشمّمون أخبار المدينة ، فكان الرسول يبعث إليهم ببعض السرايا ، تفضُّ جمعهم وتردهم على أعقابهم .

حتى جاء يوم « بَدْر » .. والتقى الجمعان في معركة كبرى دارت الدائرة فيها على قريش .

لقد جاءت تحت إمرة زعمائها في ألف مُقاتل ، كلهم مُدَرَّب ومُسلَّح ، تريد غزو المدينة والإجهاز على قُوى النور والخير البازغة في أفقها الرحيب .

وخرج المسلمون بقيادة نبيهم في ثلاثمائة وثلاثة عشر من الرجال ، ليس لأكثرهم من الدربة ولا معهم من العتاد مثلما كان للقوة الغازية ومع هذا ، استطاع الإيمان أن يفوز بعون الله ونصره .. الإيمان الذي ملأ قلوب القلة المؤمنة ، وهي تسمع نبيّها يقول مناجياً ربه :

« اللهم هذه قريش ، قد أقبلت
بخيلائها وفخرها ،
تُحادُّك وتكذب رسولك .. »
« اللهم فَنصرك الذي وعَدْتَني »

ثم وهي تراه يغادر خيمته متهللاً ، يقول :

« سَيُهزم الجمع ، ويُوَلُّون الدُّبُر »

صال الإيمان صولته المباركة ، فترنّح الكفر وهوى الباطل ، وولّت قريش الأدبار مخلّفة تحت تراب الأرض التي دار فوقها القتال جثث فريق من زعمائها الذين أصْلوا المؤمنين المستضعفين عذابهم .

جاءت قريش إلى غزوة بدر يتقدم صفوفها الزاحفة ـ أبو جهل ، وعتبة ، وشيبة ، والوليد بن عتبة ، وأمية بن خلف .. وعادت أدراجها تاركة هؤلاء جميعاً جثثاً تقبع في ردم القليب ، وتاركة معهم سبعين قتيلاً وسبعين أسيراً .

عادت تلعق هزيمتها المنكرة .. وعادت أحقادها تستغويها من جديد ، فقضت عامها كلّه تُعد نفسها وبأسها لغزو المدينة والظفر بالإسلام والإجهاز الكامل على الرسول وصحبه .

وفي نفس الموعد تقريباً، خرجت بأسرها ، ومعها أفواج من بني كنانة وأهل تهامة .. واصطحب أكثر المقاتلين نساءهم معهم ليبتعثن فيهم كل حفيظة وضراوة وإصرار .

وكانت غزوة « أحد » .. وكان يومها الرهيب ..!!

* * *

انتظم الجيش القرشي ثلاثة آلاف ، يقود المشاةَ أبو سفيان . ويقود الفرسان خالد بن الوليد .

وخرج الرسول على رأس ألف من المسلمين. تناقص عددهم في منتصف الطريق إلى سبعمائة عندما عاد عبد الله بن أُبَيّ زعيم المنافقين ــ وكان قد أسلم نفاقاً بعد الانتصار العظيم الذي أحرزه

المسلمون في غزوة بدر – عاد ومعه ثلاثمائة، أغواهم فأطاعوه..!!

أخذ جيش الشرك مواقعه .. وصفّ الرسول أنصاره المؤمنين جاعلاً ظهورهم إلى جبل أحد ، واضعاً خمسين من الرماة فوق إحدى الروابي العالية ليحرسوا ظهور المسلمين ، وليطردوا بنبالهم المشركين إذا همّوا بمباغتة المسلمين من وراء، حيث كانت بالجبل ثغرة عريضة يستطيع المشركون لو نفذوا منها أن يلحقوا بالمسلمين أذى كثيراً .

وبدأ القتال واحتدم أواره ، ودارت الدائرة على القرشيين . ولاذت جموعهم بالفرار . وراح المسلمون يجمعون الغنائم التي تركها أعداؤهم، ونسي الرماة أمر الرسول لهم ألاّ يبارحوا موقعهم مهما تكن نتيجة القتال .. فهبطوا الوادي يشاركون إخوانهم بهجة النصر وجمع الغنائم والأسلاب .

وفجأة لوى قائد فرسان قريش يومئذ – خالد بن الوليد – عنان فرسه وتبعه مائتا فارس ، فنفذوا كالسهام من الفتحة التي بالجبل والتي كان الرماة يحرسون مدخلها .

باغت الفرسان المسلمين من ورائهم ، وأعملوا فيهم الطعن والضرب، ورأى المشاة الذين كانوا قد غادروا المعركة هاربين .. رأوا ما أحدثه فرسانهم، فعاد بهم قائدهم يومئذ – أبو سفيان – .. وهكذا وقع المسلمون بين حصار رهيب .. ودارت المعركة من جديد، ولكنها كانت في جولتها هذه لحساب قريش التي استغلت هذا التفوق المواتي أبشع استغلال .

* * *

أين كان « حمزة » في ذلك اليوم الرهيب ..؟؟

كان هناك وسط أصحابه ورفاقه، يقاتل ويقاتلون في استبسال مروع وعجيب.

لقد قاتل المؤمنون جميعاً يوم أحد، كما لم يقاتلوا من قبل، ومن بعد ..!!

أبو دجانة .. ومصعب بن عمير .. وحنظلة بن أبي عامر.. وعاصم بن ثابت .. وعلي .. وأبو بكر .. وسعد .. ونسيبة بنت كعب .. وطلحة .. والزبير .. والحارث بن الصمة .. وجميع الذين وقفوا فوق أرض المعركة من أصحاب القرآن ومحمد .. قاتلوا قتالاً، نكاد ونحن نقرأ أخباره، نبصرهم ونبصر عنفوانهم ونسمع صياحهم وهتافهم ..!! وكان « حمزة بن عبد المطلب » مع هؤلاء الذين باعوا أرواحهم لله .. كان معهم يصول ويقاتل، لا تخطئه العين أبداً، فهو معروف بسيماه. وريش النعام يزين به صدره كعادته كلما خاض معركة وقتالاً.

كان يغيظه مشهد لواء قريش وهو يخفق في سماء المعركة. ومن ثم ركّز على حَمَلته، فكان ينفذ اليهم كالصقر، ويرديهم قتيلاً إثر قتيل..

رأى عثمان بن أبي طلحة يحمل ذلك اللواء. وينشد شعر المباهاة والخيلاء، فشق الصفوف اليه. وضربه بسيفه فأرداه، وسقط لواء قريش تحت الأقدام.

ومرق «حمزة» كالسهم وسط الملحمة، لا تنبو لسيفه ضربة ولا تتخلف المنايا عن عزمه.

ومرة أخرى يبصر لواء قريش يرتفع، فيشق الصفوف إلى

حامله أرطاة بن عبد شرحبيل ، فيرديه قتيلاً ، ويتمرغ اللواء من جديد في التراب اللزج بدماء المشركين .

ويعود إلى قلب المعركة ليصب المنايا بسيفه المطيع على أعداء الله ورسوله ..!!

ويبصر خلال لفتة سريعة ، مشركاً ينحني فوق راية قريش يريد أن يرفعها من الأرض لتخفق في يده من جديد ، فيكون أسرع اليه من أنفاسه المترددة في صدره .. وقبل أن يرفع الراية فوق ساريتها يكون سيف «حمزة» قد كومه بجوارها على الأرض الموحلة بالدماء .

حقاً إنه لكما وصفه الرسول [أسد الله وأسد رسوله] ..

إنه ليبلي أصدق البلاء وأروعه ، ويواجه بأس قريش بفؤاد ملؤه اليقين ، وإرادة يشحذها العزم ، وسيف لا يعرف الكلال .

* * *

ولكن قريشاً عندما كانت تجتر أحزانها وعارها يوم بدر .. ثم حين خرجت على بكرة أبيها إلى غزوة أُحـــد ، كانت قد وضعت نصب تدبيرها وخطتها أن تظفر باثنين . وليكن بعد ذلك ما يكون .

أما الاثنان فهما : الرسول .. وعمه حمزة ..

بل ان احتمال يأسهم من الظفر بالرسول ، الـــذي يعرفون مدى حب أصحابه له وافتدائهم إياه ، جعلهم يركزون بتخطيطهم وتدبيرهم على الظفر بـ « حمزة » رضي الله عنه وأرضاه .

ولقد رسموا كل الخطة التي تمكنهم من رأسه وهم بمكة قبل أن يغادروها ، واصطنعوا لذلك واحداً من أمهر الرماة ، بـل

لعله يومذاك كان أبرع من يضرب بالحربة فيصيب على الفور مقتلاً .. ذلكم هو « وحشي » غلام جبير بن مطعم .

كان عبداً رقيقاً من الحبشة ، فوعدوه بعتقه وتحريره إن هو قتل « حمزة » .

وتقدمت هند زوجة أبي سفيان – وكانت قد فقدت في بدر أباها ، وأخاها ، وابنها .. تقدمت من « وحشي » تزغلل عينيه بالذهب البراق الذي يُحلي معصميها وجيدها .. حتى إذا رأت لعابه يسيل وعينيه تنبهران لمجرد بريقه – فهو لا يطمع في امتلاك هباءة منه – ألهبت هند أمانيه وأوقدت نار طموحه إذ خلعت بهذا الحلي الكثيف أصابعها فصلصل وجلجل ، وقالت لوحشي وعيناها على عينيه تستل منها إرادته ووعيه :

– [كل هذا لك ، إذا أنت قتلت حمزة] .!!

وخرج وحشي معهم إلى الحرب ، بعد أن أوصوه ألا دور له في المعركة سوى « حمزة » .

وفي المعركة ، وعلى أرض القتال كان حمزة كما شهدنا من قبل يصول ويقاتل ويجندل بالمنايا الماحقات أعداء الله وأعداء رسوله .. وتتكسر قبل أن تبلغه سيوف المشركين الذين كانوا يحاولون مستميتين أن يصيبوه ولو بجرح يقف نهمه .. أو كسر يثلم سيفه ..!!

ولكن كان هناك رجل فارع الطول يقبض على حربته المتحفزة ويتجنب مهاوي السيوف التي يضرب بها المسلمون . وعيناه على «حمزة» تغوصان وراء وسط الطوفان المتلاحم وتطفوان – وكلما أفلت منها مرآه توقل الرجل مكاناً عالياً ليتابع بعينيه المتلصصتين فريسته وصيده .

يقول واصفاً لحظات من ذلك المشهد :

« ... ووالله إني لأنظر إلى حمزة ، ينطلق في عَرض الناس ، مثل الجمل الأورق ، يَهُدُّ الناس هَدّاً ، ما يبقي على شيء ، فتقدمني إليه سباع بن عبد العزّى ، فصاح به (حمزة) هلُمّ إليّ يا بن مُقَطِّعة البُظور .. وضربه ضربة ، فما أخطأ رأسه .

« عندئذ هززت حربتي ، حتى إذا رضيتُ منها دفعتها عليه ، فوقعتْ في ثُنّته — ما تحت سُرّته — حتى خرجت من بين رجليه فأقبل نحوي فغُلب على أمره ووقع. وأمهلته حتى مات ، فجئت وأخذت حربتي ، ثم تنحيت عن القتال .. فما كان لي بعده حاجة » ...

* * *

ومضت المعركة إلى نهايتها المقدورة — سيوف تهوي ورماح تقذف .. وصرعى يسقطون .. لا يُعرف من سقط ومَن بقي، حتى استنفد اليوم الرهيب جولتين .. الجولة الأولى التي شهدت انتصار المسلمين ، والجولة الثانية التي غشيتهم فيها محنة تتحدى كل احتمال .

أجل ، كانت محنة قاسية .. بيد انها لم تكن هزيمة ؛فما هزم الرسول في حياته أبداً .

لقد وعده الله بنصره دوماً .. ولقد صدق وعده دوماً . والذي حدث في « أحد » لم يكن شيئاً نقيض النصر .. لم يكن هزيمة أبداً بأي معيار من معايير الحروب منذ عرفت الأرض الحروب حتى أيامنا هذه ..

ويُسعدني أن أعزُوَ هذا الرأي لصاحبه، شاهداً أنني فرحت به ، واعتقدته، ورأيت فيه تصويباً وثيقاً للفكرة المغلوطة السائدة، والتي تصوّر ما حدث يوم أحد على انه هزيمة .. نجهد قرائحنا في البحث عن تفسير وتبرير ينفيان عن الإسلام عارّها .

أما صاحب هذا الرأي السديد ، فهو (مولاي محمد علي) العلاّمة الهندي ، يعرضه في كتابه « حياة محمد ورسالته »[1] ولأنقل نصّ كلماته :

« ... إن حالهم — يعني المشركين — لم تكن بأحسن من حال المسلمين .

« إنهم لم يجرؤوا على متابعة الحرب حتى النهاية خشية أن يُفضي ذلك إلى هلاكهم .

« وهكذا انقلبوا عائدين مسرعين إلى مكة، مجتازين عدّة أميال في يوم واحد .

« وفي طريق عودتهم تساءلوا عما إذا كان من حقهم أن يزعموا أنهم رجعوا ظافرين ..؟!

« إنهم لم يكونوا يحملون أية غنيمة من غنائم النصر يعرضونها على أنظار شعبهم .

« ولم يكن لديهم أسير حرب واحد ..

« أفيُعدُّ هذا نصراً ..؟؟

« وكان الجيش الإسلامي لا يزال مسيطراً على ميدان القتال ..

---

(١) نقله إلى العربية الأستاذ منير بعلبكي ، ونشرته دار العلم للملايين ، بيروت .

« وكان المشركون قد عجزوا عن احتلال المدينة رغم أنها تُركت بغير دفاع ..

« أفيكون هذا نصراً للمشركين ..؟؟

« ولقد تعقّب المسلمون عدوّهم في اليوم التالي نفسه حتى موضع « حمراء الأسد » على مسافة ثمانية أميال من المدينة ولكن أبا سفيان الذي اعتبر الحصافة خير عناصر الشجاعة نكص وهو وجيشه على أعقابهم وولّوا هاربين حين بلغتهم أنباء المطاردة الإسلامية ..

« إنه لَمِمَّا ينمّ عن جهل بالوقائع التاريخية أن يستنتج المرء أن المسلمين هُزِموا في معركة أُحد ..

« صحيح أنهم مُنُوا بخسائر باهظة ، ولكن صحيح أيضاً وبالقدر نفسه أن قريشاً أُكرِهَت على العودة خائبة .

« وهل نقع في التاريخ على حادثة انتصار واحدة ثَبَّت فيها العدو المغلوب أقدامه في الميدان ، بينما انقلب الجيش المنتصر عائداً إلى وطنه ، ليس معه أسير واحد .. بل ويُوَلّي الأدبار لَدُنْ سماعه نبأ مطاردة المسلمين له..؟؟!!» .

* * *

لم يشهد المسلمون إذن تحت قيادة نبيهم الكريمة هزيمة أبداً ..

ولم يكن الذي حدث في أُحد رغم فداحته ليشكل هزيمة بأي معيار من معايير الحروب .

فكما يقول « مولاي محمد علي » — لم يكن هناك أسير واحد وقع في أيدي المشركين .. ولم يحتلوا من أرض الإسلام شبراً واحداً . ولم يحملوا معهم أياً من غنائم الحرب .. وكذلك لم

يفرضوا أي شرط على المسلمين ولم يغيروا من واقع حياتهم شيئاً.. بل ووجدوا أنفسهم بعد النصر المزعوم بساعات يغذّون السير هاربين أمام مطاردة المسلمين الذين ظن المشركون أنهم أوقعوا بهم الهزيمة والغلب ..

كان الذي حدث إذن محنة لا غير ، استرد المؤمنون بعدها رباطةَ جأشهم ، وتوقّدَ عزمهم ، وأخذوا منها الدرس الذي شاء الله لهم أن يتعلموه ويحذقوه .

* * *

ولنعُد لنبأ « حمزة » أسد الله وأسد رسوله[1] .

لقد انتهت المعركة في جولتها الثانية .. وقف الرسول بين أصحابه يتهيأ لمعرفة الضحايا والمستشهدين .

كانت متاعب اليوم وأهواله قد أصابت الرسول بإعياء شديد. وكان قد أصيب عليه السلام فكُسرت رباعيته، وشُجّ في وجهه، وكُلمَتْ شفتاه . لكن ذلك كله كان هيناً ومُحتملاً — قبل أن تبدأ قوائم الشهداء تُتلى عليه . ثم قبل أن يأخذ طريقه إلى حيث صُرع عمه حمزة ليرى أبشع جريمة ترسم على جسده الكريم وحشيتها ..!!

كان الرسول قد أرسل بعض أصحابه يجوسون خلال أرض المعركة ليحصوا له الشهداء ويعرفوهم .

وجاءه الصحابة بالأنباء .. وراح كلما سمع اسماً من أحبّائه وأصفيائه يحتسب عند الله أجرهم ومصابه فيهم — مصعب بن عمير..

---

(١) راجع المزيد عن شخصية «حمزة» وعظمة شمائله في كتابنا :
(رجال حول الرسول) .

سعد بن الربيع .. أنس بن النضر .. أبو سفيان بن الحارث .. حنظلة بن أبي عامر .. عبدالله بن جُبير أمير الرماة الخمسين والذي ظل مكانه فوق الجبل حين هبط الرماة إلى الوادي يجمعون غنائم النصر في الجولة الأولى .. عمرو بن قيس وابنه قيس بن عمرو .. أوس بن ثابت .. عبدالله بن عمرو بن حرام .. عمرو ابن الجموح .. وعشرات من إخوانهم – مهاجرين وأنصاراً ، ضَمَّخوا (يوم أُحد) بدمائهم الزاكية ، وجادوا بأرواحهم في سبيل الله ، وفازوا برضوانه وجناته ..

ورغب الرسول أن يراهم في مصارعهم ومضاجعهم ، فسار متحاملاً على بعض أصحابه ، عابراً بين الجثث المبثوثة ملقياً عليها سلام الله ورحمته ، مودعاً إياها بدعوات باكيات .!!

لكنه بدأ يتقزز ويجزع عندما أبصر بعضهم وقد مُزقت أجسادهم ومُثل بهم ..

تُرى ماذا سيكون جزَعُه عندما تبلغ به خطواته الوئيدة المجهدة مضجع عمه الحبيب «حمزة» فيرى بطنه مبقوراً .. وكبده منزوعة .. وأمعاءه مبعثرة ..!!!

عليك صلاة الله وسلامه يا خير من حملت الأرض – ويا أبَرَّ من حملت الأرض ..

عليك وعلى عمك الشهيد المجيد صلاة الله وسلامه .

وعليك وعلى آلك وأصحابك صلاة الله وسلامه وبركاته .

***

كانت قريش قد جُنَّ جنونها حين أدركت أنها لم تحرز أي نصر .. فالرسول لا يزال حياً معافى ..

وأصحابه لا يزالون حوله أحياء صامدين ..

والمدينة ، لا تزال شامخة ، لم يقتربوا حتى من مشارفها .

وأيديهم فارغة من كـل ثمرات النصر .. فلا غنائم ، ولا أسرى .

إن كل الذي صنعوه بحملتهم التي حشدوا لها كـل قواهم وأموالهم لم يزد عن مجزرة .

إن كل الذي فعلوه وهم ثلاثة آلاف ، أمام سبعمائة لا غير ، لم يزد عن قتلهم خمسة وستين من المسلمين .

فلتكن إذن « مجزرة » فوق مستوى ما ألِف الناس والتاريخ من مجازر ، حتى لو اقتضى ذلك منهم أن يلغوا كـل رُشْدٍ لهم ، وأن يتخلَّوْا عن أبسط مبادىء الشرف والرجولة عنـد العرب بل وعند الأعراب .

وهكذا راحوا يقترفون جريمة المُثْلَة ، وهي جريمة منكرة حتى بمعايير الجاهلية نفسها ..!!

وطبيعي أن يكون البطل الماجـد « حمزة بن عبد المطلب » صاحب الحظ الأوفى من جريمة قريش النكراء ..!!

* * *

وهكذا رآه الرسول حين رآه ..

مَزَّقوا جسده .. بَقَروا بطنه .. انتزعت هنـد زوجة أبي سفيان كبده وراحت تلوكها في شماتة .. وانتزعت أمعاءه وجعلت من بعضها قلادة طوقت بـه عنقها .. وجَدَعَتْ أنفه وأذنيه ..!!

ومهما يكن حلم الرسول واستسلامه لأمر ربه، فقد كان بحاجة

إلى ملء الأرض طاقة كي يستطيع أن يحتمل المشهد الذي تتصدع من هوله الجبال .!!

لقد كظم غيظه .. ولكن إلى متى ..؟ كم من الدقائق ، بل من الثواني يستطيع بَشر مهما أوتي من القداسة أن يكظم غيظه أمام مشهد كهذا ..؟!

ولقد أسبل جفنيه في أسى ومضض .. ولكن أكان إسبال الجفنين قادراً على إلغاء الحقيقة الصارخة والمشهد المزَلْزِل ..

لك الله ، يا رسول الله ..

لك الله ، يا نور الحياة وشرفها .. يا خير الخلق ، ويا خاتم المرسلين ..!!

***

وقف الرسول يُغالب في نفسه وَقْع المشهد وأساه ، ثم قال وعيناه على جثمان عمه الحبيب :

« لَن أصاب بمثلك أبداً ..
وما وقفتُ موقفاً قط أغيظُ إليَّ
من موقفي هذا » ..

ثم توالى على خاطره حشد الذكريات .. فحمزة لم يكن عم الرسول فحسب . بل هو كذلك تِربُه .. قضيا معاً طفولتهما وشبابهما ، ثم هو كذلك أخوه من الرضاعة .

توالت الذكريات كلها على خاطر الرسول،ومرت أمام مخيلته في موكب طويل .. لم تغب منها ذكرى واحدة .. لكأنما جاءت تودع صاحبها ، وتقدم للرسول العزاء ..!!

تذكّر روعة بأسه .. وجلال أمسه ..!!

وكأنما ساءل نفسه ، أو ساءلته الذكريات. أحمزةُ مَن يُصنع به هذا ..؟؟

تُرى أيّ عزاء يُقدم للجسد الممزق وأي تعويض ..؟

وقال الرسول — وعيناه تلفّان جسد عمه بأساهما العميق ، والكلمات تخرج من تحت أضراسه مغيظة مُنذرة :

« لولا أن تحزن صفية — أخت حمزة وعمة الرسول — ولولا أن يكون سُنة من بعدي ، لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير ..!! »

أجل .. فما في الأرض مكان يتسع لوقدة الثأر الذي يهتف به الجسد الممزق المفدوح .

أما بطون السباع ، فلعلها المكان المناسب لرفات الأسد ..

ثم تابع الرسول قوله فقال :

« ولئن أظهرني الله على قريش ، في موطن من المواطن لأمثّلن بثلاثين رجلاً منهم » .

فصاح أصحابه :

« والله ، لئن أظفرنا الله بهم من الدهر ، لنُمثّلن بهم مُثلة لم يمثلها أحد من العرب » .

وهنا يستكمل « يوم حمزة » جلاله وجلاله ، وتتبدّى حكمة الله في كل ما حدث خلال اليوم للرسول وأصحابه ..!!

فلا يكاد الرسول والمسلمون يفرغون من إلقاء وعيدهم هذا، حتى يتنزل الوحي من فوره :

(ادْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن .. إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين .

(وإن عاقبتُم فعاقبوا بمثل ما عُوقبتُم به .. ولئن صبرتم لهو خير للصابرين .
(واصْبِرْ ، وما صبرُك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم، ولا تكُ في ضيّق مما يمكرون .
(إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ..)

إن الوحي كان هناك يرقب كل شيء ويسمع كل شيء .

وإن القَدر ترك الأمور في ذلك اليوم تجري لمصايرها التي انتهت إليها لحكمة بالغة .

وها هو ذا يجعل من جسد الشهيد بكل ما أصابه من مُثلة وتشويه موضوع درس اليوم العظيم ، ولتكن أشلاؤه المبتورة والممزقة وسائل إيضاح ..!!

انظروا .. أيها المؤمنون .. يا من تقفون هنا حول رسولكم ويا من ستجيئون عبر الأجيال إلى آخر الزمان ..

هذا هو حمزة .. عم الرسول ..

أكان الله عاجزاً عن استبقاء حياته ..؟؟

وهذا هو جسده الممزق ..

أكان الله عاجزاً عن حمايته من التمزيق والتشويه ..؟؟

أبداً ..

فلماذا إذن حدث هذا الذي يهزكم ويزلزلكم ..؟؟

إن رسول الله هنا ليعلمكم ..

ومنه ومن أهل بيته الأبرار يختار القدر نماذج التثقيف والقدوة.

وما دام الحق بحاجة إلى تضحيات تحميه وتفتديه،فإن التضحية إذن هي شرف الإنسان وشرف الحياة .

وما دامت التضحية شرفاً ، فيجب أن يصرف النظـر عن الشكل الذي يفرضه عليها الاضطهاد والبغي[1] .

فالتضحية ليست حفلاً ساهراً .

وسواء على البطل أن يستشهد وجسده سليم،أو يقضي وجسده ممزق .

كل ذلك ، وأكثر من ذلك يغطيه شرف التضحيـة ويحوّل أساه إلى مجد .. وفواجعه إلى بطولات ..!!

وانظروا .. يا أيها المؤمنون .

هذا رسولكم البشَر يغلبه غيظ الحليم ، فيتوعد المجرمين بأن يمثل بثلاثين من قتلاهم حين يظفر بهم غداً ، أو بعد غد ..

فهل تركه الله يردد وعيده ..؟؟

أبداً ..

لقد سمع الله قوله .. وفي مثل لمح البصر كان الوحي يقول له : لا .. عاقبوا بمثل ما عوقبتم به ..

[وَلئِن صبرتُم لَهُو خير للصابرين]

***

تالله ، ما أروع الدرس وأبهاه ..

فحتى في موطن القتال والحرب، يستهل الله كلامه إلى رسوله بقوله سبحانه :

« ادْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »

---

(١) راجع كتابنا « أبناء الرسول في كربلاء » الفصل السابع (الحصاد والدس) .

وفي موطن القتال والحرب ، لا يقول الله لرسوله [وقاتلهم بالتي هي أحسن] .

بل يقول سبحانه :

« وجادِلْهُم بالتي هي أحسن » .

مؤكداً بهذا طبيعة دوره وجوهر رسالته .. إنها النبوة تنقل إلى الناس هُدى الله بالكلمة الطيبة المقنعة .. وليست الحرب تفرض نفسها بالسيف والرمح .

وإذا كان الرسول قد اضطر للحرب ، فلأن أعداءه وأعداء دينه صنعوا الظروف التي جعلت الحرب ضرورة .

وبانتهاء الضرورة واختفاء ظروفها يعود النبي لجوهر دَوْره ووظيفته ورسالته[1] .

***

هنا يتجلى صواب اختيارنا هذا العنوان « يوم حمزة » عنواناً على « يوم أُحد » بأجمعه ..

فمصرع حمزة ، والدروس التي أفادها مصرعه كانت مركز الثقل في أحداث اليوم كلها .

كل ما حدث دون مصرعه والتمثيل به وبإخوانه البررة كان يمكن أن يأخذ مكانه بين ما هو محتمل ومألوف .

فقريش كما سبق لم تحرز نصراً .. والمسلمون كما سبق لم تنزل بهم هزيمة .

لقد استشهد منهم خمسة وستون .. وقتل من قريش اثنان

---

(١) راجع كتابنا « كما تحدث القرآن » .

وعشرون .. أي أن كل حظ قريش من المعركة التي أعدّت لها عاماً بأكمله ورصدت لها كل قواها وبأسها – كان ثلاثة وأربعين قتيلاً من المسلمين.

ومجرد هذا الرقم من الضحايا أو حتى ضعْفه أو أضعافه ، لا يشكل نصراً للضارب ولا هزيمة للمضروب ..

فما الذي جعل من يوم أحد معلماً على الأسى في عصر الوحي بأجمعه .:

وما الذي أعطاه بين غزوات ذلك العصر وأيامه طابعاً مميزاً وأهمية فريدة ..

إنه إذا استثنينا ما وقع للرسول من إصابات ، لم تحدث له قط ولم يتمكن من مثلها أعداؤه أبداً إلا في هذا اليوم ..

أقول : إذا استثنينا هذا الذي حدث للرسول ، لم يبق هناك ما يرمز ليوم أحد بنبض قوي مثل مصرع حمزة وما أفاءه من تجارب ودروس .

لقد قال الله لنبيه يومئذ :

« لئن صبرتم لهو خير للصابرين »

ولقد صبر الرسول مفوضاً لله أمره ومصيره ..

فماذا حدث ..؟؟

ماذا حدث مما يمكن أن يكون مثوبة لصبره في هذا اليوم بالذات. ومما يمكن أن يكون تعويضاً مباشراً عن حمزة ورفاقه الشهداء؟؟

حدث شيء عجيب ..

فخالد بن الوليد قائد الفرسان يوم أحد – والذي تسبب في الكارثة كلها وحوّل نصر المسلمين إلى محنة حين باغتهم بفرسانه من الوراء ..

« خالد » هذا بكل عبقريته وجبروته ، قدّمته الأقدار هدية مباركة للرسول وللإسلام وللمسلمين .!!

فبعد غزوة أحد بعامين اثنين ، كان (خالد بن الوليد) يأخذ مكانه بين الذين قاتلهم بالأمس مؤمناً أوّاباً، وجندياً مطيعاً.

أجل .. كان عبقري الحرب وعملاقها يجلس عند قدمي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يتفجر حباً وولاء وإخلاصاً .

ولنتصور الآن : لو أن الرسول والمسلمين ظفروا في موقفهم المغيظ « يوم حمزة » بخالد بن الوليد ، وقتلوه ومثلوا به ، فمن ذا الذي كانت عبقريته ستهيل عرش كسرى وقيصر ..؟؟

من الذي كانت جنوده ستمضي كالقدر ، زاحفة صوب العالم القديم ، رافعة فوق أنقاضه راية القرآن والإسلام ..؟؟

من ذا الذي كانت تدخره الأقدار لكل ما تم على يد (خالد) من فتوح ومعجزات ..؟؟

أولم يقل الله لرسوله يومها :

« ولئن صبرتم ، لهو خير للصابرين » ..؟؟

ولقد صبر ...

وها هو ذا الخير يأتيه في موكب عريض .. فبعد إسلام خالد وعمرو بن العاص ، تتوالى انتصارات الإسلام .. فاليهود تخيب كل مساعيهم ضد الدين القويم ، ويجلون عن المدينة وما حولها .. وغداً ، تفتح مكة ، وتستسلم قريش بأسرها، ويسارع أبو سفيان قائد جيش الشرك في غزوة أحد وسواها .. يسارع إلى خيمة الرسول نادماً يعلن إسلامه .. وبعد غد تدخل الجزيرة كلها في دين الله أفواجاً ، ويتم الله نوره ..!!!

كل هذا المستقبل الباهر العظيم ، تلقّى الرسول والمسلمون

بُشْراه في نفس ذلك اليوم الذي غشيتهم فيه الفجيعة والأحزان.
ذلك اليوم الذي ناداهم الله فيه وصدورهم تتحرق غيظاً ونقمة. قائلاً لهم :

[ولئن صبرتم لهو خير للصابرين]

فحنوا جباههم لدعوة الله ، واحتسبوا لديه زعيمهم الجليل حمزة واحتسبوا لديه رفاقهم الأبرار شهداء اليوم الرهيب .

أجل .. لقد نفض الرسول عن خاطره فكرة الثأر في نفس اللحظة واحتسب عمه الحبيب بكل ما أصابه عند الله .. حتّى حين رأى بعض نساء الأنصار يبكين حمزة ويَذكُرْنَ مناقبه ظناً منهن أن ذلك يُثلج صدر الرسول ، نهاهن وأمرهن بصمت جميل .

بل وحتّى حين رأى عمته (صفية) مقبلة نحو جدث أخيها الشهيد ، خشي أن يغلبها الحزن والفجيعة فتتصرف بطريقة تنقص ثواب الاحتساب .

هنالك طلب من ابنها (الزبير بن العوام) أن يلقاها ويرجع بها حتّى لا ترى ما أصاب أخاها .

ووقف الرسول عليه وعلى آله وصحبه الصلاة والسلام .. وقف ملقياً سمعه لحديث الزبير وأمه صفية ، فسمعه يقول لها :

« إن رسول الله يأمرك أن ترجعي »

وسمعها تجيبه :

« ولِمَ أرجع وقد بلغني أنه مُثل بأخي ..؟؟
« وذلك في الله ، فما أرضانا بقضائه »
« لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله . »

وكانت هذه الكلمات عزاء جميلاً أبهج صدر الرسول فنادى الزبير :

« خلِّ سبيلها يا زبير » .

وجاءت ، فسلّمت على أخيها وصلّت عليه واستغفرت له ومضت في سلام .

* * *

ودفن (حمزة) بعد أن صلى عليه الرسول مرة واحدة .. ثم مرات كثيرة بعدد الشهداء الذين كانوا يوضعون بجوار (حمزة) فيصلي عليهم الرسول شهيداً بعد شهيد .

وثوى البطل العظيم بين رفاقه العظام .

وعاد الرسول وصحبه إلى المدينة ليستأنفوا تبعاتهم الجليلة ، وليواصلوا أعباءهم المتجددة في مسيرة الإسلام .

يوم الحديبية

(فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ...
فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً)

أيّ يوم مثير .. وأيّ يوم مُبَشِّر .. وأي يوم باهر القسمات رائع الدلالة ، كان هذا اليوم ...؟؟!

إنه ليكاد يكون نسيج وحده في الكشف عن جوهر الرسول وجوهر الرسالة وجوهر المؤمنين .

فلا نكاد نعرف يوماً وضع إيمان الصحابــة موضع الامتحان الشاق والشاهق ، كهذا اليوم ..

ولا نكاد نعرف يومــاً جلّى حقيقة الرسول كأب للسلام والمرحمة ، وجلّى حقيقة الإسلام كأطيب مُناخ للسلام والمعْدَلـة كهذا اليوم ..

كذلك ، فإن المسافة التي لا منتهى لها ، والتي تفصل بين علم الله ومعرفــة المخلوق .. بين حكمة الله وحكمة الخلق ، قد وضحت في ذلك اليوم المجيد وتأكدت على صورة تبهر الألباب .

وتبدأ مزايا « يوم الحديبية » .. بمجيئه في أعقاب غــزوة الخندق .. هذه الغزوة التي حشدت قريش لها كل بأسها،وخرجت بتحريض اليهود مصطحبة معها حلفاءها ، قاصدة المدينة لتغزوها داراً داراً ، ولتجهز في غير رحمة على المسلمين جميعاً .

في ذلك اليوم هدّد المسلمون بخطر ماحق ، ورأوا أنفسهم فجأة بين جيش قريش وحلفائها يزحفون على مدينتهم الوادعة من الخارج ، ويهود بني قريظة يتهيأون لطعنهم من الداخل .

وليس ثمّة ما يعبّر عن المحنة التي وجد المسلمون أنفسهم بين أنيابها ، مثل آيات القرآن الكريم التي وصفت وصوّرت ذلك الموقف المدمدم الرهيب .

« .. إذ جاءوكم من فوقكم . ومن أسفل منكم
وإذ زاغت الأبصار . وبلغت القلوب الحناجر
وتظنّون بالله الظنونا ..
« هنالك ابتُلي المؤمنون،وزُلزِلوا زلزالاً شديداً ».:!!!

ولكن ، من ظلام المحنة ، بزغ نور الظفر .. ومن حلكة اليأس أضاءت بشائر المستقبل .

فبينما الرسول والمسلمون يحفرون الخندق حول المدينة غلُظت على بعض الأصحاب صخرة عاتية،فعلاها الرسول بمعوله وضربها ثلاث ضربات ، ومع كل ضربة كانت الصخرة المتكسرة تبرق بوهج مجيد . كبّر الرسول حين أبصره ، وحمد الله ، إذ رأى خلال ذلك معظم الأرض الواسعة التي ستخفق فوقها غداً وبعد غد راية الإسلام والقرآن .

وأما قريش وحلفاؤها من بني كنانة وتهامة وغطفان ، فقد سخِر الله منهم وأنزل بهم خذلاناً — أي خذلان ..!!

لقد أراد الله سبحانه أن يكون هذا اليوم معجزة لدينه ولرسوله. فلم ينشب قتال .. وصفّى القدر حسابه مع الغزاة البغاة بإحدى معجزاته الباهرات .

ففي بضع ليال متوالية اشتد بردها حتى الصقيع، جاءت ريح عاصفة كريح السموم اقتلعت خيامهم وأهلكت دوابهم . وشتتت جموعهم . « ووقف أبو سفيان » قائد قريش يقول لجيشه المبعثر:

[يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام . لقد هلك الكراع — الخيل — والخُفّ — الإبل — وأخلفتنا بنو قريظة . ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قِدْر .. ولا تقوم لنا نار . ولا يستمسك لنا بناء .. فارتحلوا فإني مرتحل].

وانسحب الجيش المترنح خزيان صاغراً ذليلاً .

لم تشهد تلك الغزوة أي قتال .. ومن ثم كانت المعجزة ، والمعجزة وحدها ، بطلَ النصر العظيم ..

وإذا استثنينا الجهد الذي بذله المسلمون في حفر الخندق ، ومبارزتين قتل في إحداهما مشرك،وهرب الثاني .. ثم تلك الحيلة البارعة الرائعة التي أفسد بها « نعيم بن مسعود » جو الثقة المتآمرة بين قريش ويهود بني قريظة .

إذا استثنينا هذه الأعمال الثلاثة ، لا نجد بعد ذلك جهداً بشرياً لكسب حرب لم يصادف المسلمون مثلها ضراوة وتآمراً وبأساً . إنما نجد « المعجزة » وحدها تؤكد للمسلمين أن النصر من عند الله .. وتؤكد لهم أن « محمداً » حق .. وأن « الإسلام » حق .. وأن الله على ما يشاء قدير ..!!

***

نقول : كانت أولى مزايا « يوم الحديبية » أنه يجيء في أعقاب غزوة الخندق هذه ، بما سجلته من هزيمة ساخرة وقاهرة للمشركين . ومن نصر باهر ومعجز للمؤمنين .

كان الرسول قادراً ساعتئذ أن يطارد الجيش الغـازي ويجهز عليه . لكنه لم يفعل ، لأن الحرب لم تكن وظيفته .. بل كانت ضرورته .. فـإذا انصرف عنه عدّوه حمد الله وعاد إلى وظيفته الأساسية :

« .. شاهداً ، ومُبَشراً ونذيراً
وداعياً إلى الله بإذنه ، وسراجاً منيراً »

أجل .. إنه لم يتمنّ الحرب قط ، ولم يسعَ إليها ولا رغب فيها . ولقد كان يعلم أصحابه فيقول :

« لا تتمنوا لقاء العدو
وسلوا الله العافية
وإذا لقيتموهم ، فاصبروا
واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف. »

إنه لا يريد الحرب، لأنه رسول لا مقاتل . ولكن إذا أراد الباطل أن يملي عليه غروره وبغيه، فجنته حينئذ تحت ظلال سيفه، يود أن يُقتل في سبيل الله ، ثم يحيا ويقتل .. ثم يحيا ويقتل..!!

وهكذا عزفت نفسه عن مطاردة جيش كسير ، كان قادراً — لو تعقّبه — على إبادته أو إعطابه .

كذلك تسامت نفسه الطاهرة العالية عن زهو المنتصرين وصلف الظافرين . وتمنى أن تكون قريش قد حذقت الدرس وتطامنت أمام المعجزة ، وقررت أن تلقي سلاحها وتبرأ من جنون الحرب وعقدة التعاظم .

وأخذه الحنين الوارف إلى بيت الله الحرام بمكة ، ورغب أن يبدأ مسيرة مباركة إليه .. لكن شهر رمضان كان قد أهـلّ

هلاله ، فبقي الرسول بمدينته المنورة رمضان وشوالاً. وفي شهر ذي القعدة من ذلك العام — السادس للهجـرة — خرج ومعه قرابة ألف من أصحابه قاصدين المسجد الحرام، ليعتمروا ويزوروا.

خرجوا يرتدون ملابس الإحرام ، ويسوقون الهَدْي أمامهم ، آيةَ أنهم لا يريدون صداماً .

فلنقف الآن مبهورين أمام هذا المشهد الفذّ .

رسول ، لا تترك قريش فرصة لقتاله إلا تناولَتْهـا .. وقد سارت إليه منذ شهرين لا غير في عشرة آلاف مقاتل من بنيها لتحصد المدينة حصداً .. وهي وإن تك قـد عادت خائبة ، إلا أن جيشها وعتادها لا يزالان سليميْن ، ثم إن الخيبة التي نزلتْ بها تزيد حقدها ضراماً .

مع هذا كله ، يذهب الرسول إليها طائعاً مختاراً في ألف فقط أو أقلّ من الألف ، مغمدين سلاحهم ، متجرّدين من قوتهم .

إنها الثقة المطلقة بالله .. ثقة رسول صادق يعلم أن الله اصطفاه لرسالته .

وإنه الولاء الوثيق للسلام يحمل صاحبه دائماً على إحسان الظن بالخصم . وتمني الهدى له .

* * *

خرج الرسول وأصحابه، تسبقهم أشواقهم إلى البلد الذي شهد مراتع صباهم وشبابهم ، وإلى البيت الحرام الذي جعله الله مثابةً للناس وأمناً .. حتى إذا بلغوا (عسفان) على مرحلتين من مكة، لقيهم من أنبأهم أن قريشاً قد علمت بهذه المسيرة، وأنها خرجت على بكرة أبيها ، وأخذت مواقعها على مشارف مكة لتصد الرسول والمسلمين بقوة السلاح عن دخولها .

وكان جواب الرسول على هذه المفاجأة القاسية :

« يا ويح قريش ..

« لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب ، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا.. وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين .. وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة .

« فما تظن قريش ..؟؟

« والله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة ... »

وعدل عن الطريق المفضية إلى حشود قريش تفادياً لأي صدام.

عدل عنها رغم استوائها إلى طريق آخر وعر ،يضر الأجساد، ويدمي الأقدام .. وتابع الرسول سيره حتى بلغت مسيرته وأصحابه مهبط الحديبية على مقربة من مكة .. ونزل المسلمون ونصبوا خيامهم. ووقف الرسول مولياً وجهه صوب مكة، وعيناه ترسلان نظراتها الحانية إلى مشارفها الآسرة ، وراح يقول :

« لا تدعوني قريش اليوم إلى خطّة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » !!

إن رحمته لتتجاوز الحدود المألوفة لرحمة البشر .. إنها لتمتد وتنبسط حتى تنال شانئيه وأعداءه .. إنهم بدل أن يكونوا موضع نقمته ، أصبحوا موضع رثائه وشفقته .. إنه يرجو لهم التعقل والأناة ليذروه وشأنه ، يبلغ كلمة الله ويهدي الى الخير عباده .. بل حتى في حالة الحرب إذا أصروا عليها ، يشفق عليهم أن يحاربوا وهم يترنحون من إعياء الخيبة التي أدركتهم يوم الخندق،

فيتمنى لهم أن يقاتلــوا – حين يقاتلون – وبهم وَفْرَة ، كما رأينا في كلماته السالفات ..

أي إنسان كامل كان أبا القاسم صلى الله عليه وسلم ..؟؟!!

***

وجاءه وفد من خُزاعة تحت إمرة « بُديل بن ورقاء » وسألوه عليه السلام : ما الذي جاء به ..؟ فأنبأهم أنه جاء ليزور البيت ويؤدي له مناسك التكريم وشعائر التعظيم، وأنه لم يأت لحرب أبداً.

وعاد الوفد إلى قريش يلومهم على احتشادهم المسلح أمــام جماعة جاءوا لبيت الله – لكن القرشيين ركبوا رؤوسهم ورفضوا أن يدخل المسلمون ورسولهم مكة بحال .

وأرسلوا مبعوثاً لهم يطلب من الرسول أن يرجع بأصحابه .. وقال له الرسول ما قاله من قبل لبديل بن ورقاء .

وأرسلت قريش مبعوثاً ثانياً ، لم يكد يرى الهَديَ يسيل في جنبات الوادي مزداناً بقلائده ، حتى أدرك أن الرسول وصحبه لم يأتوا لغير عبادة ، ونُسك ، فاستحيا أن يذهب ببلاغ قريش إلى رسول الله واختصر الطريق وعاد ليقول لقريش :

« أيُصدُّ عن بيت الله من جاء معظّماً له ..؟

« والذي نفسي بيده، لَتُخَلُّنَّ بين محمد وما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد » .

ولم تُطامِنْ قريش من غرورها، فبعثت مبعوثها الثالث .. جاء ليقول للرسول عليه الصلاة والسلام .

[.. إنها قريش ، قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور ، وتعاهدوا ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً] .

وطال حديثه إلى الرسول ، وكاد المغيرة بن شعبة صاحب رسول الله يبتر يده بسيفه حين تناول لحية الرسول وهو يحادثه ، لولا بسمة انفرجت عنها شفتا النبي وتهلل بها ثغره ، وإشارة من يمينه المباركة للمغيرة كي يكفّ غضبه ويسكت ..!!

وعاد « عروة بن مسعود » مبعوث قريش هذا ، إلى قومه مأخوذاً مبهوراً .

عاد يقول لهم :

« يا معشر قريش .. إني قد جئت كسرى في ملكه .. وقيصر في ملكه .. والنجاشي في ملكه .

« وإني والله ما رأيت ملكاً له من المنزلة في قومه مثل ما لمحمد في أصحابه .

« ولقد رأيت في أصحابه قوماً لا يُسْلمونه لشيء أبداً .

« فَرَوْا رأيكم »

ودارت الأرض بقريش ..

وبينما شيوخها يفكرون ، قدم عليهم مبعوث للرسول لم يكادوا يبصرونه حتى فجروا غيظهم الأحمق ، فعقروا البعير الذي كان يركبه ، وهموا به ليقتلوه لولا أن منعتهم الأحابيش وتركوه يرجع سالماً إلى رسول الله .

ولم يجزع النبي ولم ييأس ، فدعا « عثمان بن عفان » وأمره أن يذهب إلى قريش ليبلغ أشرافها ورجالها أنه لم يأت لحرب .. إنما جاء معتمراً وزائراً لبيت الله الحرام .

أي بَشر ، مهما تكن حبال صبره طويلة ، لا يغضب لنفسه أمام كل هذا العنت والتجبر ..؟؟

ولكن رسول الله يخرج عن كل نفسه إلى طاعة ربه ورضوانه .

وهو لا يتخلى عن الصفح الجميل ونشدان السلام ، حتى حين يساء فهم موقفه النبيل .

وذهب «عثمان» وبلّغ رسالة الرسول ، ورفضت قريش كل دعوة للتعقل .. وأذنت لعثمان أن يزور البيت الحرام ويطوف به إذا شاء .. لكنه رفض ، وقال كلماته العظيمة :

« ما كنت لأفعل، حتى يطوف به أولاً رسول الله»!!

واستبقته قريش عندها ، وطارت إلى المسلمين شائعة قوية تعلن مقتل «عثمان» بأيدي قريش .

***

شائعة ..؟

ومقتل عثمان ..؟

وهل هذا مقام ، وهل هذه مناسبة يترك الله فيها رسوله ليكون نهب شائعة من الشائعات .؟

وإذا لم يسعف الوحي رسول الله باليقين في مناسبة محفوفة بالخطر كهذه المناسبة ، فمتى يكون الإسعاف ..؟!

شبهة قد ترد على خاطر القارئ المتعجل، لكن مع قليل من الأناة ندرك أن الوحي لم يحرم الرسول في هذا الموقف من بركة اليقين ..

صحيح أن الوحي لم يأته في نفس اللحظة ، ليقول له : إن عثمان لم يقتل ، ولا يزال حياً معافى .. ذلك لأنه كان قبلاً قد بشّر الرسول بعاقبة الموقف كله ، وأعطاه في رؤيا صادقة صورة الموقف كله: دخول المسجد الحرام آمنين ، والرجوع إلى المدينة سالمين ..

ورُسُل الله الأعلَوْن، لا يعاملهم الوحي ولا يُعلمهم بطريقة التَّهْجيَة ، بل هو يَدعهم يواجهون عظائم الأحداث والأمور بكدح البشر ومُعاناة الرواد ، وحسبهم ذلك اليقين الأكبر الذي منحهم الوحي إياه حين أعلن إليهم اصطفاء الله إياهم ، ووعده بنصر الرسالات التي ملأ بها قلوبهم وتوّج بها كواهلهم .

وهكذا لم يكن الرسول بحاجة ماسة إلى ما يزيده في موقف الحديبية يقيناً بأن الله منجز وعـده ، وحافِظه وصحبه في هذه المسيرة التي بشّر بها .. فهناك اليقين العام الذي يعمل الرسول في دائرته .

لقد رأى رؤيا صادقة — ورؤيا الأنبياء حق — أنه وأصحابه سيأتون مكة ويزورون المسجد الحـرام دون أن يعكـر مسيرتهم حادثة على مستوى قتل صحابي من كبار أصحابه كعثمان بن عفان رضي الله عنه .

فهو لهذا يشعر رغم قوة الشائعة بطمأنينة نفس .. وإذا كان القدر قد ترك في هذا الموقف قدْراً من الشك والفراغ المجهول بشأن هذه الشائعة ، فذلك طبيعي حتى يأخذ الجهد البشري حظه من حرية الحركة وصنع الأحداث .. فبمثل هذا تبلـغ القدوة بالمرسلين مداها وتعطي ثمارها في دنيا النـاس .. وهكذا رأينا الرسول عليه السلام يواجه الموقف بعقلية القائد وطمأنينة الرسول.

فهو أمام شائعة العدوان على حياة مبعوثه يرى أن قريشاً قد أعطته الحق المحتوم في مناجزتها، فينادي أصحابه إلى بيعة خلّدها القرآن باسم « بيعة الرضوان » .

وهو أمام طمأنينته بصدق ما رأى وما وُعـد ، يحس كأن الشائعة غير صحيحة ، ومن ثم نراه عليه السلام بعد أن بايـع

أصحابه وبايعوه على مناجـزة قريش ، يضع إحدى يديه على الأخرى قائلاً :

« وهذه بيعة عثمان » ..

أي أنه تلقى البيعة من نفسه لنفسه نيابة عن صاحبه عثمان .

وتفسير ذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان ينظر إلى عثمان .. بوصفه «غائباً» لا ميتاً ولا مفقوداً .. ولهذا أثبت له بيعة الأحياء.

إن يوم الحديبية حين نطالع في التاريخ أنباءه ، كان مدرسة رائعة لدروس روائع ..

● إن تأهيل المسلمين لحمل أمانة الإسلام بكل ما يفرضـه ويتطلبه من ثقة مطلقة بحكمة الله ، وتسليم مطلق لأمره ، قـد تم في ذلك اليوم على خير نسق ..

● وإن وضوح حقيقة الإسلام ، كدين يهدي ولا يكْـرِه .. وسيلته الحجة ، لا السيف .. والإقناع لا القهر ، قـد تجلى في ذلك اليوم كنور الصباح ..

● وإن أعظم عملية صهر واختبار للقوة النفسية التي يشكلها إيمان المسلمين ، قد تمت في ذلك اليوم ، طاردة عن تلك القوة كلَّ شوائب التردد والضعف ، صاعـدة بها إلى أعلى درجات التمكن والوثوق .

* * *

ولقد كان اليوم من أولى ساعاته مفعماً بالأحداث التي شاءها القدر الحكيم لينضج عليها روعة الإيمان الذي يملأ قلوب هـذه الثُّلَّة المباركة من أصحاب الرسول .

لكن هذه الأحداث بلغت قمة التمركز والجيشان حين أرسلت

قريش مبعوثها الأخير « سهيل بن عمرو » لعقد صلح مع رسول الله يكون أساسه العدول نهائياً عن دخول مكة هـذه المرة حتى لا يتحدث العرب أن الرسول والمسلمين قد دخلوها عليهم عنوة.

وعلى الرغم من أن « سهيلاً » كان مفاوضاً بارعاً ، إلا أن النجاح الذي أحرزه لم يرجع قط إلى براعته .. إنما يرجع أولاً وأخيراً إلى رغبة الرسول في حقن الدماء ومنح قريش كل فرصة تمكنها من التغلب على غرورها وحمقها وضلالها ، وإقناعها بكل سبيل ، أن الإسلام دين محبة وسلام .. وبر ومَرْحمة .

* * *

جلس سهيل أمام الرسول ومن حوله أصحابه يتدارسون شروط الصلح المأمول .

وكلما دار الحديث حـول شرط من تلك الشروط ، غَلَت صدور الصحابة كالقدور .. فقد كان الأمر كلـه يبدو لصالح قريش دون المسلمين .

ثم جاء دور تسجيل المعاهدة في صحيفـة .. ولْنُصغِ الآن لما يقوله الذين شهدوا الواقعة :

« .. ثم دعـا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب

فقال : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم

« فقال – سهيل – لا أعرف هـذا .. ولكن أكتب باسمك اللهم ..!!

« فقال الرسول لعلي : اكتب : باسمك اللهم ..

« ثم قال : اكتب : هذا ما صالح عليه (محمد) رسول الله ، سهيل بن عمرو .

« فقال سهيل : لو أعلم انك رسول الله ما قاتلتك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ..

« فقال الرسول لعليّ : اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله ، سهيل بن عمرو .. اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يَأمَنُ فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض – على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم .. ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه .. وإن بيننا عَيبة مكفوفة – أي شر مكفوف – وإنه لا إسلال ولا إغلال – لا سرقة ولا خيانة – وانه من أحب أن يدخل في عهد محمد دخل فيه .. ومن أحب أن يدخل في عهد قريش دخل فيه .

« وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة . وأنه إذا كان عام قابل ، خرجنا عنك فتدخلها بأصحابك تقيمون بها ثلاثاً ، معكم سلاح الراكب ، السيوف في القُرُب ، لا تدخلها بغيرها » ..

* * *

ما نحسب الرسول عليه السلام واجه موقفاً متأزماً ومثيراً كهذا الموقف .. وما نحسب المسلمين واجهوا – حتى أيام محنتهم وتعذيبهم بمكة – موقفاً هزّهم هزّاً عنيفاً كهذا الموقف في ذلك اليوم.!!

لقد انتصروا على المشركين في كل حرب خاضوها معهم من قبل .. ولقد عجزت قريش عجزاً مطلقاً عن أن تدخل عليهم مدينتهم أو تحتل شبراً واحداً منها . وها هي ذي لا تزال تجتر مرارة الخيبة التي حاقت بها في غزوة الخندق .. ألم يكن جديراً

بهذا كله أن يجعل كفة المسلمين هي الراجحة في صلح كهذا ..؟؟

فما بال الأمر يجري على النقيض ..؟!

تلك حكمة الله ، يا أصحاب الرسول ..

وتلك عظمة هذا اليوم الباهر والجليل ..!!

* * *

لقد رفض مبعوث قريش أن يبدأ عهد الصلح بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » لأن كلمتي « الرحمن الرحيم » كانتا تمثلان الوصف الجديد الذي يعرف المسلمون به الله رب العالمين .. ثم رفض أن يُكتب : « هذا ما صالح عليه محمد رسول الله » وطالب بأن يُحذف عن الرسول وصف الرسالة .. وفي كلا الأمرين استجاب الرسول من فوره .

ثم فرضت معاهـدة الصلح أن يرجع المسلمون عامهم ذاك دون أن يدخلوا مكة ويزوروا المسجد الحرام .

ثم حددت مدة إقامتهم حين يعودون في العام القادم بثلاثـة أيام ، لا يبقون بعدها ساعة من نهار ..

ثم فرضت على المسلمين أن يردوا إلى مكة كل من غادرها إلى المدينة ليعتنق الإسلام من غير إذن وليّه .

كل هـذا قبله الرسول وأمضاه .. أما المسلمون فقد كاد صوابهم يطير . واستجاش الموقف كل ما في صدورهم من عزّة وكل ما في عروقهم من دم ، ووقعوا في حيرة مرهقة من كبْت مشاعرهم احتراماً لقرار الرسول ، وترك هذه المشاعـر تتفجّر وتمور نقمة على قريش وغرورها ..!!

وتلاقت نظراتهم حَيرى متسائلة .. ولم يستطع « عمر بن الخطاب » أن يصمت ، فساءل الرسول :

« ألسْت رسول الله حقاً ..؟

قال الرسول : « بَلى ..

قال عمر : « أوَلسْنا بالمسلمين ..؟

قال الرسول : « بلى ..

قال عمر : « أوَليْسُوا بالمشركين ..؟

قال الرسول : « بَلى ..

قال عمر : « فَلِمَ نُعطي الدَّنيَّة في ديننا ؟

قال الرسول : « أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره، ولن يضيعني » .

لقد سمع المسلمون هـذا الحوار .. وعلموا أن الرسول وإن يكُ قد وعدهم بدخول مكة وزيارة البيت الحرام ، فإنه لم يقل لهم : هذا العام ...

ولكن رغم ذلك كله كان الموقف صعباً وثقيلاً عـلى قوم أعزة زادهم الإسلام عزة وصلابة .

ولقد زاد الموقف توتراً وصعوبة حين أقبل على الرسول شاب يعدو ، وألقى نفسه بين يديه هاتفاً بكلمة الإسلام ...!!

كان الرسول قد فرغ لتوّه من توقيع معاهدة الصلح.. وكان الشاب « أبو جَندل » ابن سهيل بن عمرو الذي فاوض الرسول وأمضى المعاهدة نيابة عن قريش ..

أخذ أبوه بتلابيبه ، وراح يضرب وجهه في وحشية بالغة .. ولما رأى حنان الرسول يأتلق في عينيه صاح قائلاً :

[يا محمد .. لقد لجّت القضية ، وتم العهد بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا] .

وقال الرسول ، والأسى يملأ نفسه : — صدقت ..

لقد صار واجباً على المسلمين بحكم المعاهدة التي تم إبرامها من لحظة أن يردّوا (أبا جندل) إلى قريش ..

وهكذا قاده أبوه أمامه ليرده إلى قريش التي كانت قد شوّهت جسده بتعذيبها إياه من أجل اعتناق الإسلام ..

قاده أمامه ، يدفعه ويضربه بينما راح (أبو جندل) يتلفت صوب المسلمين وينادي :

« يا معشر المسلمين

« أتتركوني أرد إلى المشركين ، يعذبوني ويفتنوني في ديني. ؟

وقال له الرسول عليه السلام :

« يا أبا جندل !

« اصبر واحتسب ، فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجـاً ومخرجاً » !!

بينما شد هـذا المشهد زناد التوتر النفسي إلى أقصاه في نفوس المسلمين . وصار الموت أهون عليهم وأحب إليهم من أن يتخلوا هكذا عن نصرة أخ لهم تطحنه — وهم يبصرون — أنياب الشرك والطغيان .

لكن الله بالغ أمره ..

ولقد أراد في هذا اليوم المشهود أن يظهر للمسلمين يومئذ ، وللمسلمين القادمين إلى يوم القيامة ، قبساً من حكمته وتدبيره ليعرفوا بعد ، كيف يؤمنون به ، ويفوّضون إليه ، ويعتمدون عليه ...

أراد — سبحانه — أن ينفي عن إيمان المؤمنين كل بقايا التّردد والتساؤل ..

وأراد — سبحانه — أن يُعلّم أولئك الذين امتشقوا سيوفهم دفاعاً عن الإسلام ، أنه مهما يكن نبل المقصد الذي أشرعت من أجله السيوف ، فإن الإسلام دين سلام ... وأنه يجد فرصته المواتية خلال الموادعة والمصالحة والسلام .. وهكذا ، لن يمر عامان من يوم الحديبية هذا حتّى يدخل المسلمون مكة في عشرة آلاف يتقدمهم رسولهم الأمين الكريم ، وحتّى تدخل مكة كلها في دين الله ، ملقيةً إلى الأبد حقدها على الإسلام وعلى المسلمين . ! !

* * *

لقد بدا واضحاً جلياً أن كل أحداث ذلك اليوم كانت من تدبير القدر الحكيم .

بدا ذلك ، حينما كان الرسول والمسلمون في طريق عودتهم إلى المدينة فإذا الوحي يتنزل على الرسول بسورة « الفتح » مفسراً تلك الأحداث ، ومعلناً قبساً من حكمة الله فيها .

لقد أعلن الوحي أن صلح الحديبية رغم ما وجده المسلمون فيه من عنت ، إنما هو بوابتهم العريضة المفتوحة على مستقبل يتلألأ بالنصر وبالمغانم .

[إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك . ويهديك صراطاً مستقيماً ، وينصرك الله نصراً عزيزاً] ..!

وأعلن الوحي أن ذلك اليوم الحرور ، كان صهراً رائعاً للقوى النفسية لدى المؤمنين ، وأنهم بهذا الصهر قد اكتسبوا سكينة المؤمنين .

[هو الذي أنزل السّكينـــة في قلوب المؤمنين ليزدادوا
إيماناً مع إيمانهم]

كما أكد أن هذه السكينة التي نالوها ، والتي استقر إيمانهم بها عند أعلى مستويات اليقين هي النصر الحقيقي .. هي أغــلى وأثمن من كل نصر عسكري أو سياسي كانوا يطمحون إليــه فقال تعالى :

« وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً ».

وخلّد الوحي ذكرى بيعة الرضوان ، واعتبرهـــا مَعْلماً من معالم المسيرة الإسلامية الكبرى .

« إن الذين يبايعونك ، إنما يبايعون الله
يد الله فوق أيديهم » ..

« لقد رضي الله عن المؤمنين إذْ يبايعونك تحت الشجرة ،
فعلم ما في قلوبهم ؛ فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ،
« ومغانم كثيرة يأخذونها ، وكان الله عزيزاً حكيماً » .

وكشف الوحي عن طرف من حكمة الله في هذا الصلح وما واكبه من أحداث ، معلناً أن هذا الذي ظنه المسلمون إخفاقاً ، ليس سوى إدلاف إلى مغانم كثيرة وإظهار لبركـة الإسلام الذي سينتشر تلقائياً ومن غير قتال انتشار الضوء والرياح .

« وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ، فعجّل لـــكم هذه
وكفّ أيدي الناس عنكم،ولتكون آية للمؤمنين ، ويهديكم
صراطاً مستقيماً » .

ثم أكّد الوحي صدق الرؤيا التي رآها الرسول ، والتي بتأثيرها خرج وأصحابه قاصدين مكة والمسجد الحرام .

وأكّد الوحي صدقها وإنجاز وعدها في يوم قريب .

« لقد صدق اللهُ رسولَه الرؤيا بالحق .
لتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام إن شاء الله
آمنين مُحلّقين رؤوسكُم ومُقصِّرين ، لا تخافون
« فَعلِم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك
فتحاً قريباً » .

* * *

ينقل ابن هشام عن الإمام الزهري قوله عن صلح الحديبية:

[ما فُتح في الإسلام فتح قبله ، كان أعظم منه ، فحين كانت الهدنة ووُضِعت الحرب ، لم يكن أحد يسمع بالإسلام إلا دخل فيه ، حتى لقد كان عدد الذين أسلموا في سنتين اثنتين مثل أو أكثر من عدد جميع الذين أسلموا منذ ظهر الإسلام].

أجَل ... لقد علِم الله ما لم يعلموا ، فجعل مِن دون ذلك فتحاً قريباً ...

لقد كان يوم الحديبية هذا ، في أواخر العام السادس للهجرة .. وفي أواخر العام الثامن للهجرة، أي بعد عامين اثنين كان عشرة آلاف مسلم يأخذون طريقهم الظافر إلى مكة تحت إمرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وكان القدَر العظيم قد أعد المشهد إعداداً مثيراً ، فجعل على ميْمنة جيش الإسلام الزاحف (خالد بن الوليد) الذي كان قد شَدَّ رِحاله إلى المدينة بعد صلح الحديبية ، وقبيل فتح مكة ، حيث آمن وأسلم وأخذ مكانه بين جنود الله والإسلام .

هكذا كان يوم الحديبية ، بما انطوى عليه من حِكم بالغة ، ومقادير تناهتْ في الجلال والإعجاز ..!!

يوم الفتح

(جاءَ الْحَق ، وَزَهقَ ٱلباطِل) ...

عرفْنا أنه كان بين بنود صلح الحديبية، أنّ من أراد الدخول في عهد الرسول دخل فيه ، ومن أراد الدخول في عهد قريش دخل فيه .

ومعنى الدخول في العهد أن يكون الداخل حليفاً للطرف الآخر ينصره ويستنصره ..

ويوم تمّ توقيع المعاهدة دخلت قبيلة « بني بكر » في عقد قريش فصاروا حلفاءها.. ودخلت قبيلة «خزاعة» في عقد الرسول فصاروا حلفاءه .

وبعد توقيع المعاهدة ، ورجوع الرسول إلى المدينة تفرّغ عليه السلام لتوسيع مجال الدعوة إلى الله ، فأرسل رُسُلَه إلى أقطار الأرض حاملين كتُبَه إلى رؤساء الدول وأباطرتها وملوكها ، يدعوهم إلى الإيمان بالله الواحد الأحد .

فإلى ملك الفرس..وإلى قيصر الروم .. وإلى نجاشِيّ الحبشة.. وإلى المقوقس في مصر .. وإلى أقيال العرب في أنحاء الجزيرة العربية.. إلى هذه الدنيا الواسعة العريضة ، انطلق رُسُله المباركون حاملين دعوة الحق والخير والهدى والنور .

ولقد حافظ الرسول على عهد الحديبية محافظة وتْقَى ، فلم يُخِلّ بحرف منها . وحاشاه أن يُخِلّ بعهد أو التزام .

لكن قريشاً وقد أفزعها ما أفاءه السلام على الإسلام من فرص ثمينة مكّنته من الذيوع السريع وامتداد نفوذه الروحي بغير سلاح وبغير عناء .

قريش وقد أفزعها ذلك، راحت تتلمس للغدر بعهدها المكتوب فرصة .

وحدث أن أغار حلفاؤها « بنو بكر » على « خزاعة » حلفاء رسول الله والمسلمين .. والتجأت «خزاعة» الى البيت الحرام بمكة عائذة بحرمته وبقداسته من بني بكر .. ولكن بني بكر أهدروا حتى حرمة الحرم وهاجموا خزاعة في داخله وقتلوهم في مجزرة بشعة رهيبة .. وكانت قريش عوناً لها على جريمتها .

وبين مَن نجوْا من القتل ، كان « عمرو بن سالم الخُزاعي» الذي أغذّ السير إلى مدينة الرسول ، وسارع الى المسجد حيث كان عليه السلام جالساً مع بعض أصحابه ، فألقى السلام وصافح ثم راح يروي مأساة قبيلته خزاعة في قصيدة مُثيرة :

يا ربّ إني ناشدٌ محمداً حِلْفَ أبينا وأبيه الأتْلَدا
فانصر هداك الله نصراً أعْتدا وادْعُ عباد الله يأتوا مَددا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقَك المؤكدا
هم بيّتونا بالوتير هُجّدا وقتلونا رُكّعاً وسجّدا

وجاء على أثر « عمرو بن سالم » وفد من خزاعة ، شرح للرسول عليه الصلاة والسلام تفاصيل المأساة الغادرة ودور قريش فيها .

وكان حقاً للرسول، وحقاً عليه أن ينصر حلفاءه الذين تعرضوا لهجوم وحشي وغادر .

هنالك أرسل إلى قريش يخيرها بين دفع دِيَة القتلى من خُزاعة أو التخلي عن بني بكر وإلغاء حلفها معهم .. أو اعتبار معاهدة الحديبية مُلْغاة .. ورحَّبت قريش بالخيار الثالث واختارت إلغاء المعاهدة .

وكان معنى اختيارها هذا واضحاً جَلِياً ، فهي رغم وجود المعاهدة ناصرت حلفاءها ضد حلفاء الرسول، ثم رفضت عَرْض الرسول بتسوية عادلة تُدفع فيها دِية القتلى .. والآن وقد آثرت إلغاء المعاهدة كلها، فهي إذن تُمهد لاستئناف عدوانها على الإسلام وعلى المسلمين .

وقرر الرسول فتح مكّة ..

* * *

وهنا ، في يوم الفتح نلتقي بواحد من الأيام العظيمة لرسول الله .. يومٍ تألّقت فيه شمائل (ابن عبدالله) وشخصيته الفريدة.

● إنّ مزية يوم الفتح تتمثل في أنه قدّم لأخلاقيات النصر أرفع نموذج عرفه تاريخ البشرية ، مذ كانت حتى يومنا هذا .

● كما تتمثل في إعلانه الأكيد بأنه مهما تكن شرور الدنيا وظلامها وطغيانها وزيفها فإن الغلبة أخيراً للحقيقة والصدق .

فلقد افتاتت قريش بتعذيب المسلمين حتى بَشِمَتْ، وكانت بكثرتها وبحلفائها وبسيادتها وبصلابــة التقاليد التي تحيا بها وتذود عنها .. كانت بهذا كله تبدو: وكأنها قادرة تماماً على إبادة الدين الجديد الناشيء ، حتى جاء يوم الفتــح ليقلب ميزان حسابها .

ويقدم غرورَها وصلَفها وبطشها وآلهتها طُعمة ليوم الحساب..!!

***

ولكن يوم الحساب هـذا ، يُحوله الرسول — صلى الله على الرسول — إلى آية كبرى في أخلاقيات النصر .. آيـة كبرى في السُّمُوّ والتسامح والرحمة والحنان على الإنسان وعلى الحياة .

ها هو ذا يدخل عليه في خيمته الرجل الذي قاد كل حروب قريش ضد الإسلام .. يدخل عليـه وهو يرتجف إذ يرى سيف (عمر بن الخطاب) يتلمظ به يريد أن يخطف رأسه .

أجَل .. ها هو ذا أبو سفيـان تُصْمي سَمْعَه وتَفدح عينَه هُتافات النصر ورايات الإسلام .. وهو وحيد أعـزل ، لم يعد معه ولم يعد له ذلك الجيش العرمرم الذي طالما حارب به الإسلام ورسوله .

ها هو ذا ، ولا مطمح له أكثر من أن يحقن الرسول دمه ، ويحفظ له حياته .. فإذا رسول الله تتجلى إنسانياته وتتألق في إجراء ما نعرف له من نظير ..

لقد عزّ عليه ما بدا فيه أبو سفيان من مَذلّة وهوان .. هذا الذي كان من ساعات زعيم قريش كلها .. هذا الذي تحدّر من أصلاب شيوخ قريش وأمجادها .

لقد كان رديئاً ومقيتاً حين كان معه شرّه وإثمه وبأسه يُحادّ بها الله ورسوله .. أما الآن وقد أكرهته مشاهد النصر العظيم على أن يخلع عنه شرّه وإثمه وبأسه ، فلماذا لا يكون له في هذا اليوم من رحمة الله وبرّه وسموه حظاً جزيلاً من التكريم ..؟؟

لقد أمر الرسول بعض أصحابه أن ينادي :

« من دخل المسجد الحرام فهو آمن »

« ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن »

« ومن دخل داره فهو آمن »

انظروا .. المسجد الحرام ، ودار أبي سفيان .. أي تكريم هذا الذي ما كان ليطوف بخاطر قائد قريش ولا في الأحلام ..؟!

لقد كان حسبه لفتة تسامُح .. كان سيعتبر نفسه أربح الفائزين لو سمع من الرسول عليه السلام مجرد كلمة عفو وصفح .. فإذا به يُرفع له علَم ، حين يعلن منادي الرسول أن دار أبي سفيان هي اليوم أمنٌ وملاذ .. وهي اليوم موضع حرمة ورعاية وتكريم.

يا لَسُمُوِّ نفسك ، ويا لجَلال شمائلك ، يا رسول الله .

إن هذه الدار ، هي دار الرجل الذي دوّخ المسلمين عبر عشرين عاماً .

وفي هذه الدار تقبع (هند) زوجة أبي سفيان التي مزقت يوم أحد بطن عمك (حمزة) ومضغت في ضراوة كَبِده .. واتخذت من أمعائه قلائد ..

أين في تاريخ البشر — جميع البشر — تسامح كهذا .. سمو كهذا .. جلال كهذا ..؟؟

صدق ربنا الأعلى :

« وإنك لَعلى خُلُق عظيم ».

* * *

ونواصل متابعة السمو الباهر في يوم الفتح العظيم .

لقد كان (سعد بن عُبادة الأنصاري) أحد قادة الجيش

المسلم في ذلك اليوم . وكان عليه أن يدخل مكة على رأس فيلقه من ناحية المعلاة عند جبل كَدَاء ، مهيئاً الطريق لدخول رسول الله ..

وتذكّر سعد بن عبادة في تلك اللحظات ما أصابه من أذى قريش في بيعة العقبَة ، حين نمي خبرها — يومئذ — إلى الزعماء القرشيين فخرجوا يطاردون الأنصار الذين بايعوا الرسول ، فلم يدركوا منهم سوى اثنين ، هرب أحدهما ونجا .. وأمسكوا بالثاني وقادوه إلى مكة ليسوموه من تعذيبهم — وكان هو — سعد بن عبادة .

لقد أنزلوا به يومئذ الضُّرّ ، وأطلقوا سراحه بعد حين ، لما علموا أنه واحد من زعماء المدينة ، طريق تجارتهم إلى الشام .

تذكر (سعد) ذلك الماضي الأسيف ، وأخذه زهو النصر الذي منحه الله عباده المؤمنين في هذا اليوم المجيد ، فصاح وهو يقترب من أبواب مكة :

[اليوم يوم الملحمة .. اليوم تُستباحُ الحُرْمَة] .

ونُقلت كلماته إلى الرسول ، فأغضبته ، وأمر (علي بن أبي طالب) أن يدرك سعد بن عبادة ويتأمَّر على فيلقه ، ويأخذ منه الراية ويدخل بها مكة ..!!!

إنه لا يسمح لأحد أصحابه وقادة جيشه بلحظة واحدة من الزهو في يوم نصر عظيم كهذا ..

ذلك لأنه ليس غازياً ولا فاتحاً ، فتحركه مشاعر الغزاة والفاتحين .

بل هو رسول وهادٍ ..

وفي ضَجّة النصر وهيلمان الفتح لا يكــون للزهو مكان في أفئدة المرسلين ولا في أفئدة المؤمنين .. إنما هي الجباه تنحني شكراً لله وإخباتاً حتى تكاد تلامس التراب ..!!!

* * *

كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد تكتّم نبأ خروجه إلى مكة ودعا ربه قائلاً :

« اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش ؛
حتى نَبْغَتَها في بلادها ... »

وكان حرصه على نجاح المفاجأة مظهراً لرحمته الوارفة .. فهو يعلم أنه إذا استيقظت قريش على أخبار الفتح قبل إنجازه، فسوف تستعد للحرب وتتهيأ . وعندئذ يكون الصدام المسلح ، ويكــون القتال والقتل والضحايا — الأمر الذي لا يريده الرسول ولا يتمناه.

ولقد كتب الله للخُطّــة توفيقاً ونجاحاً باهرين . وفوجئت مكة بعشرة آلاف مسلم يحملون سيوفهم وأعلامهم ، فلم تُحِرْ جواباً ، ولا دَرَتْ صواباً .

وكان الرسول عليه السلام قد أمر الجيش وقواده ألا يريقوا دماً قط ، وأن يدخلوا البلد الحرام حاملين إليه الأمن والسلام والعافية ..

لقد نفّذ المسلمون أمر الرسول بحزم شديد ، ولم يقع سوى حادث أو حادثين ، ذهب فيهما خمسة قتلى من قريش، وشهيدان من المسلمين .

وفي وهج هذا الانتصار الساحق المبين ، تطل علينا المعجزة بضياء جديد يبهر الألباب .. فهذا هو الرسول المنتصر تُواتيه

الفرصة لكي يفرض دينه وتعاليمه ، فإذا هو لا يصنع ذلك أبداً .. إنه كان معنياً بأمر واحد ، هو إزاحة مظاهر الوثنيــة والشرك ونسف ما وراء هذه المظاهر من باطل وضلال .. من أجل هذا لم يكد يطمئن بمكة ، ويطمئن على أهلها وعـلى استقرار الهدوء والأمن فيها حتى قصد البيت الحرام فطاف به سبعاً .. ثم دخل المسجد فرأى الأصنام تملأ جنباته وأبهاءه .. تماثيـل من رصاص وخشب ، طالما هانت أمامها كرامة الإنسان وأهدرت لها حرمة العقل والضمير ، فراح – عليه السلام – يحطمها ويقذف بهـا أرضاً وهو يردد الآية الكريمة :

« جاء الحق وزهق الباطل »
« إن الباطل كان زَهوقاً ».

وعلى جدران البيت الحرام أبصر صوراً كثيرة ، صوروا بها ملائكة الله ، تتوسطها صورة كبيرة لأبي الأنبيـاء (إبراهيم) عليه السلام ، صوّروه فيها وهو يستقسم بالأزلام ، فـآلمه المشهد وقال :

« ما شأن إبراهيم بالأزلام » ..؟؟
ثم تلا الآية الكريمة :

« ما كان إبراهيم يهودياً ، ولا نصرانياً ،
ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين ».

* * *

كانت قريش لا تزال ترتجف ..
فصحيح أن الجيش دخل مكة في سلام .. ولكن ماذا بعد..؟؟

ماذا سيصنع الرسول والمسلمون بأولئك الذين طاردوهم بالاضطهاد ثم بالحرب طوال عشرين عاماً ..؟؟

هل سيعاملهم كمجرمي حرب ..؟ وعلى أي شاكلة سيكون القصاص ..؟!

ونُودي الناس ليستمعوا خطاب رسول الله .. واجتمعوا من كل صوب ، ووقفوا مبهورين ، يطويهم الخوف ، وينشرهم الرجاء .. ووقف التاريخ ليسجل للبشرية كلها مشهداً جَلَّ عن النظير ..

وعلى باب الكعبة وقف رسول الله واستهلَّ خطابه فقال :

« لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له »

« صدق وَعْدَه »

« ونصر عَبْدَه »

« وهزم الأحزاب وحده »

نصر عَبْده .. يا لروعة الاختيار ..!

لماذا لم يقل : نصر رسوله أو نبيَّه ..؟؟

إنه في هذا المقام بالذات حيث نشوة النصر قد أسكرت كل شيء حتى جبال مكة الشامخات ، يكون لكلمة (عبد) ترياقها العظيم .. وهذا هو جوهر عظمة (محمد) صلى الله عليه وسلم!!

إنه لا يرى نفسه أبداً شيئاً أكثر من عبد لله وخادم .. وفي هذا الوطن ، حيث تمَّ له النصر والغلَب ، وحيث دالت دولة خصومه وأعدائه ، وحيث ارتفعت راياته تملأ في جلال النصر جوَّ السماء ... الآن وفي هذا الموطن يبلغ شعوره بالعبودية لله أعمق وأبعد مداه .!

* * *

وبعد أن يهلل لله ويكبر . ويوحّد ويمجّد ،، يبدأ خطاب النصر الذي أرهقت لسماعه القلوب .

ترى كم سيطول خطاب النصر هذا ..؟ وكم سيأخذ من ساعات ذلك اليوم المشهود ..؟؟ وماذا ستكون كلماته الآخذة القاهرة .؟ لننظر ...

« يا معشر قريش ... »

وفي لحظة الصمت التي أعقبت هذا النداء ازدحمت مئات الخواطر في حسبان القرشيين ، كلها تتخيل العبارة التالية ، صاعقة تسحق ما قدّمت أيديهم من شر وسوء .

لكن العبارة التالية كانت أبعد ما تكون عن كل ما توقعه المتوقعون :

« إن الله قد أذهب عنكم نخوة
الجاهلية ، وتعظّمها بالآباء ...
« الناس من آدم . وآدم من تراب ..

ثم تلا الآية الكريمة :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ،
وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا
إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

هذا رسول كريم ، ليس لديه وقت للضغن ولا للثأر ولا للقصاص . إن كل حياته منذورة لرسالته .

وها هوذا بعد توحيد الله ، يعلن كرامة الإنسان .. لا تفاخر بالأحساب ، ولا تعاظُم بالأنساب .. الناس سواء .. وأكرمهم أتقاهم ..!!

ثم عاد يقول :

« يا معشر قريش » ..

واشرأبت الأعنـــاق من جديد ، وزاغت الأبصار .. لكن البشرى هطلت سريعاً كغيث السماء :

« ما تظنون أني فاعل بكم » ..؟

وهدرت الجموع الوجِلة بكلمة واحـدة ، كأنما كانوا على اتفاق بترديدها ..

« خيراً ... »

« أخ كريم » ...

« وابن أخٍ كريم ... » .

وتهلّل ثغر المصطفى ، وقال :

[اذهبوا .. فأنتم الطُّلقاء] ...!!!

هذا هو خطاب النصر في يوم النصر العظيم ..

لم يستغرق سوى دقيقتين أو ثلاث . مُجّد الله فيها وحُمد .. وأعلنت كرامة الإنسان الجديد الـذي ينشئه الإسلام .. وغُمـــر المذنبون الذين كانوا ينتظرون القصاص ويستحقونه ، بأنبل عفو، وأجمل صفح ..!!

هذا هو سلوك الرسول ومسلك الإسلام ..

* * *

ترى ، فيم إذن كان أمره عليه السلام بقتل نفر من المشركين سمّاهم بأسمائهم ،وأمر بقتلهم ولو وُجدوا لائذين بأستار الكعبة ؟

إن الصورة العريضة والمشرقة لسلوك الرسول يوم الفتح تومىء بالجواب :

فلو كان الأمر بقتلهم باعثه الترة والتشفي والانتقام لكان أولى بذلك رجال مثل «أبي سفيان» و «عكرمة بن أبي جهل» وعشرات من أساطين قريش العنيدين .

ولو كان للتشفي والرغبة في الانتقام يومئذ وجود ، لرأينا آثارهما في المسلك العام للفاتحين .

إذن لا بد أن يكون لهؤلاء من الجرم ما يعلم رسول الله أن قتلهم قصاص يفرضه العدل والقانون ..

ونأخذ صورة هذا الاستنتاج من أحد هؤلاء الذين أباح الرسول دماءهم . وهو عبدالله بن خطل .. كان مسلماً وبعثه الرسول ذات يوم في مهمة جمع الزكاة ، وبعث معه مسلماً من الأنصار يخدمه ويعاونه .. ولكنه في الطريق غدر بأخيه المسلم وقتله ، ثم ارتد عن الإسلام الى الوثنية والشرك ..

هذا إذن قاتل ، ارتكب جريمة قتل عمد ، ثم غيَّر دينه ليهرب من القصاص ..

إن كل قوانين الأرض ، لا تسمح له طبعاً بهذا الهروب والإفلات ..!!

على أن معظم الذين أمر الرسول بقتلهم يومئذ لم يُقتلوا .. بل جاء بعضهم نادماً فعفا عنه الرسول، وشفع لآخرين بعض أصحابه فنالهم منه صفح وعافية .

لم يكن يوم الفتح العظيم يوم تشفٍّ ولا انتقام .. بل كان يوم برٍّ ورحمة وسلام .

ولقد حدث يومها والرسول يطوف بالبيت أن اقترب منه «فضالة بن عمير» يريد اغتياله .. وظلّ يدافع الزحام حول

الرسول حتى حاذاه وأصبح قادراً على توجيه ضربته في غير عناء..

وفجأة رأى الرسول يلتفت إليه ويقول :

« أفضالة ...؟ »

واضطرب الرجل وأجاب :

نعم ، فضالة ، يا رسول الله ..!!

وسأله الرسول :

« بم تحدث نفسك يا فضالة ..؟

قال فضالة وقد ازدادت بلبلته واضطرابه :

لا شيء .. إنما أذكر الله ..!!

وضحك الرسول ، وقال له: « إستغفر الله ،يا فضالة ..»

ثم وضع يده الحانية المباركة على صدره ..

واسمعوا فضالة يقول :

« والله ، ما رفع يده عن صدري حتى صار ،

وما أحد من خلق الله أحبّ إليّ منه » !!

وانضمّ فضالة إلى موكب الإسلام وجماعة المسلمين ..

فهل عرفت الدنيا تسامحاً كهذا التسامح .. وبراً كهذا البرّ.. وإنساناً كهذا الإنسان ..؟؟

إن روعة التسامح الذي شهده يوم الفتح تتمثل في أنه لم يكن مجرد مبدأ يُقرَّر ويُعلَّم ويُبشَّر به .. بل كان تطبيقاً وممارسة داخل ظروف تكافأت فيها عوامل النجاح وعوامل الإخفاق .. بل كانت عوامل الإخفاق، أعني إخفاق فضيلة التسامح في السيطرة على الموقف ، كانت يومئذ أكبر وأرجح ، بسبب ما لقي المسلمون من المشركين من عذاب وهلاك ..

لكن النبوّة كانت هناك في شخص خاتم النبيين وإمام المتقين فربح التسامحُ الموقف بغير منافسة وبغير عناء ..

واستطاع رسول الله بتوفيق ربــه ونعمته ، ثم بعظمة نفسه ونبل شمائله،أن يجعل من يوم الفتح هذا شرفاً للإنسان ، ونوراً للحياة ..!!!

يوم حنين

(أَعجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ، فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيئاً)

لعلّ أصدق وصف لهذا اليوم أن نقول: إنه كان « يوم الله » ..

كان يوم آياته .. ويوم معجزاته .. ويوم التمحيص الذي ردّ المؤمنين إلى ربهم خُشّعاً عارفين ..

و « يوم الله » .. الذي تجلّت فيه حكمته سبحانه في اختيار « محمد بن عبدالله » للرسالة ، ولقيادة البعث الجديد والمجيد الذي أراده الله للعرب خاصّة وللبشر كافة ..

* * *

. إلى الجانب الشرقي من مكة ، كانت تقيم قبيلة من كبريات قبائل العرب ، ومن أشدها بأساً ، وأكثرها تمرّساً في الحرب وضراوة في القتال ـ تلك هي قبيلة « هوازن » .. نادت إليها قبائل ثقيف ، ونصر ، وجُشم ، وقرروا أن يبطشوا بالمسلمين بطشة كبرى .. ظانين أنهم إذا قدروا عليهم وأنزلوا الهزيمة بهم ، فإنهم يرثون كل أمجاد مكة وقريش ..

إن مكة وقريشاً قد أذعنَتا يوم الفتح . ومَن لم يُسْلِم منهم فقد استسلم ، وانتهت مكة تماماً كمركز لمقاومة الرسول والإسلام ..

وإذن ، فحين تهزم هوازن وحلفاؤها المسلمين ، تصبح صاحبة الحق الأكيد في تبوّؤ زعامة العرب وأخذ المكانة التي كانت لقريش فيهم .

وتحت إمرة رجل طموح اسمه (مالك بن عوف النّصْري) خرجت تلك القبائل في أعداد لَجِبَة هائلة من المقاتلين الأشداء.

ولمناسبة كلمة (قبائل) أود أن أنقل عن كتابي « رجال حول الرسول » هذه الفقرة :

« لا ينبغي أن تخدعنا عن طبيعة تلك الحروب التي كان يخوضها الرسول طوال حياته فنظن أنها كانت مجرد مناوشات بدوية صغيرة .. فليس هناك حروب أشد ضراوة من حروب تلك القبائل في معاقلها ..

وإدراك هذه الحقيقة ، لا يعطينا تقديراً شديداً للجهد الخارق الذي بذله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فحسب .. بل يعطينا كذلك تقديراً صحيحاً وأميناً لقيمة النصر العظيم الذي أحرزه الإسلام والمؤمنون .. ويعطينا رؤية واضحة لتوفيق الله الماثل في هذا النجاح وذلك الانتصار ... »

* * *

خرجت تلك القبائل تحت إمرة ذلك الرجل الطموح ، الذي أخرج مع المقاتلين أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، ليوحي إليهم أنها معركة مصير ، وأنها معركتهم الوحيدة، إذا أصابتهم فيها هزيمة، فستسحقهم وأهليهم وذراريهم وأموالهم .

وأرسل الرسول أحد أصحابه ليعرف له أنباء القوم وجِدّية استعدادهم ونواياهم .

وعاد رسوله بصورة واضحة عن الموقف كله . وهو موقف قوم يصممون على شنّ حرب عاتية ضد المسلمين .

كان مع الرسول عشرة آلاف ، هم الذين سار بهم إلى فتح مكة ، وانضمّ إليهم ألفان من أهل مكة ، منهم من أسلم يوم الفتح ومنهم من بقي على دينه . وهـذه صورة باهرة لبركات الموقف الإنساني المجيد الذي وقفه الرسول يوم الفتـح في أوج انتصاره ..!!

لقد دفـع هذا الموقف القرشيين الذين لم يغادروا دينهم ولم يدخلوا في الإسلام بعد ، إلى أن يموتوا في سبيله ، فخرجوا معه – عليه الصلاة والسلام – للقاء هوازن وحلفائها .

كان تعداد الجيش – إذن – اثني عشر ألفاً ... عدد كثير يبعث الزهو ، لا سيما والمسلمون قد فتحوا بالأمس القريب البلد الذي كان عاصمة الوثنية في الجزيرة كلها، ومركز المقاومة الضارية للإسلام وجماعته .

هنالك ازدهاهم النصر ، والعدد الكثير ، وقالوا :

[لَن نُغلَب اليوم مِنْ قِلة] ..!!

قِلَّة ، وكَثْرة .. ما لجند الله ، وهذا الحساب ..؟!

لقد وضعوا قوتهم الذاتية في الميزان .. بينما الميزان كله بيد الله ، وليس في كفته الراجحة سوى فضل الله على رسوله وعلى المؤمنين .

إن المسلمين بَشَر .. ويبدو أن فتح مكة على تلك الصورة السريعة والمذهلة التي تمّ بها ، يوشك أن يفتنهم بأنفسهم وبقوتهم فليكن لهم درس سريع يردهم من فورهم هذا إلى مَدارهم الحق

حول الله وحده : صاحب الفضل والنعمة في كل ما كان ، وما سيكون .

* * *

كان وادي حُنين ، الذي دارت فيه المعركة كثير الأغوار والمضايق والمنحدرات .

ولقد سبقت هوازن وحلفاؤها إلى الوادي ، وكمنوا في شعابه وأحنائه ومضايقه .

وجاء المسلمون ليحتلوا الوادي ، دون أن يعرفوا أن هوازن قد سبقتهم إليه .. وحين بلغوه ، كان الصبح يتنفّس ويبعث بشائر ضوئه في خفوت . وبينما المسلمون ينسابون بأعدادهم الكثيرة فوق منحدرات الوادي ، إذا النبال والحراب والسيوف تنوشهم في بغتة مزلزلة ، أوقعت في صفوفهم من الفزع والهلع ما لم يصابوا بمثله أبداً حتى في يوم «أحُد» الرهيب ..!!

وهكذا أراهم الله الخبير العلم أن كثرتهم لم تغن عنهم شيئاً.

وأنه ليس من حقهم أن ينسَوْا ما نزل به الوحي على رسولهم:

« وما النصرُ إلا من عند الله »

لقد لقنهم القدر هذا الدرس في أوانه ..

وانتقل بهم في نفس اللحظة إلى درس آخر جديد ..

ذلك أنه حين اضطربت صفوفهم ، وولّوا راجعين بعيداً عن المنحدَر العريض الذي فاجأتهم هوازن من مكامنه ، وقف الرسول وحده في ثبات يصعب تصوره .. وقف ينادي بأعلى صوته غير مُحاذر أن يدلّ الصوت أعداءه عليه .

« إلى أين أيها الناس »
« هَلُمُّــوا إليّ »
« أنا رســول الله »
« أنا محمد بن عبدالله »
« أنا النبي،لا كَذِب»
« أنا ابن عبد المطّلِب»

لم يكن معه ولا حوله آنئذ سوى أبـي بكر ، وعمر .. وعمه العباس ، وابن عمه عَليّ ، وأسامة بن زيد .. وأبـي سفيان بن الحارث ، وابنه .. والفضل بن العباس وأخيه قَثَم ، وربيعــة ابن الحارث ، وأيمن بن عُبيد ..

أجل .. بقي الرسول وحده ، وسط هؤلاء العشرة أو الأحد عشر من أصحابه ، في قلب المنحدر الرهيب الذي برزت منـه فجأة مئـــات المحاربين من هوازن تخفق فوق رؤوسهم رايتهم السوداء ، وتمتلىء أيديهم بسيوف الموت وحراب المنايا ..!!

ثبت الرسول في الموقف الرهيب ليكون ثباته آية يزجيها القدر على أنه في كل غزواته ، لم يكن يستمد الشجاعة من جيشه ، بل كان الجيش هو الذي يستمد الشجاعة والثبات منه .

هذه الحقيقة التي عبّر عنها أصدق تعبير الإمام عليّ كرم الله وجهه حين قال :

[كنا إذا اشتد القتال وحمي الوطيس ،
احتَمينَا برسول الله] ..!!

وقف ابن عبد المطلب .. ينادي :
« أنا النبيُّ ، لا كَذِب »

وأمر عمَّه العباس — وكان جسيماً جهـوري الصوت — أن ينادي ، فصاح :

« يا معشر الأنصار »

« يا أصحاب البيعة »

وصدحت نداءات الرسول وعمه في آذان الذين شتّتتهم مفاجأة هوازن ، فانقلبوا راجعين كالجبال يطحنون المنحـدر طحناً ، وراحت سيوفهم ونبالهم ورماحهم تحاصر هوازن وحلفاءها بالموت وبالأسْر ، وصاح الرسول في حماس وابتهاج .

[الآن حَمِيَ الوَطِيس]

وراحت خيل الله تصهل ، وهي تطأ بأظلافها القـاهرة خيل اللات وخيل هوازن .

وتمَّ الدرس الثاني من دروس حنين بنجاح ..

وبعد حين قريب سيسجل الوحي ببعض آياته هـذه الظاهرة فيقول :

[ويومَ حُنَيْن ، إذ أعجبتكم كثرتُكم ،
فلم تُغْنِ عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض
بمـا رَحُبَتْ ، ثم ولَّيتُم مُـدْبرين .
« ثم أنزل الله سكينته على رسوله ، وعلى
المؤمنين . وأنزل جنوداً لم تروها ، وعذّب
الـذين كفروا . وذلك جزاء الكافرين] .

لقد تجلى في هذا المشهد ، مِن أي جوهـر فريد يختار الله رسله .. وتجلى في هذا المشهد ثبوت المعجزة الإلهية وعملها .. فمن ذا الذي عصم رسول الله من موت محقق وقد صار وحيداً بين مئات السيوف والنبال والرماح ..؟

لنصغ إلى واحد منهم هو (شيبة بن عثمان بن أبي طلحة) كان أبوه قد قتل بسيوف المسلمين يوم أحد :

« ... وقلتُ : اليومَ أُدرك ثأري
من محمد .. اليوم أقتل محمداً ..
فالتفت حوله لأقتله ، فإذا شيء يتغشى
فؤادي لا أطيقه ،
فعلمت أنه معصوم مني » ..!!

ومن الذي ردّ الانكسار المباغت إلى نصر كاسح في مثل لمح البصر ..؟

إنها معجزات الله الصادقة :

« والله غالبٌ على أمــره »
« ولكن أكثر الناس لا يعلمون »

لقد أسفر القتال عن كثرة كاثرة من قتلى المشركين .. وستة آلاف أسير .. وبحر زاخر من الغنائم والأسلاب .. وفرّ قائد جيش الشرك (مالكٌ بن عوف النصري) ومعــه مجموعـة من المنهزمين حيث احتموا وراء حصون الطائف ، فلحق بهم جيش الإسلام وضرب حول الطائف حصاراً محكماً ..

ترى ، لماذا طارد الرسول — عليه السلام — الجيش المنهزم وفرض على الطائف الحصار ، وهو الذي رأيناه يمارس إجراءاته الحربية في نطاق الضرورة القصوى ..؟؟

إنه طارده ، وحاصر مقره الجديد ، لا تغييراً لمنهجه المسالم الرحيم . بل دعماً لهذا المنهج وتمكيناً .. ففي الطائف يمكن للجيش الهارب ولقائده الطموح ، أن يعيدوا تنظيم أنفسهم ليواصلوا الفتنة والحرب من جديد ومعهم حلفاؤهم من ثقيف .

من أجل هذا ، لم يكد الرسول الكريم ، يدرك أنهم قد ملّوا سلاحهم ، وأمْسَوْا أعجز من أن يعودوا للقتال حتى اتخذ موقفاً جديداً ، ينقلنا إلى المكرمة الثالثة من مكارم يوم حُنين ودروسه وأمجاده ..

* * *

لقد أمر الرسول برفع الحصار عن الطائف بعد أن لبث قرابة عشرين يوماً .. واقترح عليه بعض أصحابه أن يدعو على ثقيف ويلعنها ، فإذا هو يرفع كفيه إلى السماء ضارعاً :

« اللهم اهْدِ ثقيفاً »

« وأتِ بهم مُسلمين » ..!!

وانصرف عليه السلام عن الطائف ، حتى بلغ (الجعرانة) فنزل بها مع جيشه . وهناك قدم عليه وفد من هوازن .. القبيلة التي دبرت للإسلام وللمسلمين أخبث مؤامرة ، وأضْرى قتال :

جاء وفدها يسأل الرسول أن يترك لهم أسْراهم ،وكان فيهم كثير من النساء والأطفال الذين أخرجهم مع الجيش قائده (مالك ابن عوف النصري) ليثير وجودهم حَمِيّة المقاتلين،فأمر الرسول بإطلاق سراحهم جميعاً وردّهم إلى ذويهم .

وقائد الفتنة (مالك بن عوف) ماذا صنع الرسول به ..؟؟

هذا الذي خرج يريد رأس محمد .. ودين الله .. وحصد المسلمين ..؟؟

انظروا ، يا أهل الأرض في كل زمان ، ومكان ..

لقد سأل الرسول وفد هوازن :

« أين مالك بن عوف ..؟؟ »

قالوا : « هو بالطائف مع ثقيف .. »

كان قادراً أن يبعث إليه من يقتله أو يأسره .. بل كان قادراً أن يستخدم وفد هوازن نفسه لإنجاز هذه المهمة كشرط لتسريح أسْراهم .

لكنه فعل ما لا يقدر عليه سواه – صلى الله عليه وسلم – .. فقد قال للوفد :

« أخبروا مالكاً ، أنه إن جاءني مسلماً ، رددت عليه أهله وماله ، وأعطيته مائة من الإبل » ..

إنه لا يؤمنه على حياته فحسب .. بل ويضمن له العيش في المستوى الرغد الذي كان يعيش فيه كواحد من زعماء عشيرته ..!!

ويحمل الوفد إلى (مالك) البشرى .. فيأتي مهرولاً إلى الرسول الكريم الرحيم .. ويسلم ، ويحسن إسلامه ، بل ويعبّر عن فرحته بالهدى والإسلام بقصيد يقول فيه :

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله   في الناس كلّهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتُدِي   ومتى تشأ ، يخبرك عما في غد

* * *

أهذا رسول حرب وعنف .. أم رسول سلام ومحبة ..؟؟

إن يوم حُنَيْن .. يعطينا أصدق تبيان وتفسير لقضية «الإسلام والحرب» ولأخلاقيات الإسلام في الحرب .. ليس فقط لما شهده ذلك اليوم من مشاهد الصفح والنبل والسموّ .. بل قبل ذلك لموقف المشركين في ذلك اليوم المثير .

إن خروج المشركين للحرب يوم حنين، يُظهر كنور الصباح حقيقة الظروف التي أكرهت المسلمين إكراهاً على أن يحملوا سيوفهم ويخوضوا المعارك لحماية أنفسهم ودينهم،فلقد كان المأمول

بعد فتح مكة أن تخمد إلى الأبد ثائرة الوثنية ، وتضع الحرب أوزارها ، ويسلم المسلمون سيوفهم إلى السُّبات العميق .

لكن الشرّ كان يخفي أخبث مفاجآته ، فـإذا قبائل أخرى تلتقط الراية التي سقطت من قريش ، وتزحف في جيش كثيف لمحاربة الإسلام وأهله .

إن هذه الصورة ، ثم الصورة التي رسمتها غزوة « تبوك » حين تحرّش الروم بحدود الجزيرة العربية .. هاتان الصورتان تفسران في صدق موقفَ الإسلام من الحرب ، مثلما يفسر مسلكه النبيل في القتال مدى ولائه للعدل والرحمة والسلام !!

* * *

ويوشك « يوم حنين » أن يشارف نهايته التي نلتقي عندها بعجيبة أخرى من عجائبه العظام .

لقد كان الرسول مصمماً على أن يجعل من هذا اليوم « يوم الله » .

لقد رأى نصر الله يتجسّد أمام عينيه ، فلم يدرِ كيف يشكر ربه العليّ الكبير .

لقد انتهت معركة حنين بالنصر ، وكل حرب تنتهي بالنصر تطرح على الفور مشاكل السلام ، وأولى هذه المشاكل — غنائم الحرب .

ولقد كانت غنائم الحروب تمثل بالنسبة للمقاتلين المسلمين حقوقاً مكفولة وهامة .. فهي يومئذ من أهم مصادر المعيشة والرزق .

ويوم حنين ، كانت الغنائم من الكثرة بمكان ..

وكان هناك آلاف من الإبل والغنم ، تملأ الأعين وتسيل اللعاب .. وبينما المسلمون الأوائل يتطلع كل منهم إلى قسمه

ونصيبه إذا بالرسول الذي قرر أن يجعل من يوم حنين «يومَ الله» إذا به ينادي المؤلّفة قلوبهم من مسلمة الفتح الذين لا يزال إسلامهم على شفا المنفعة والنكوص ، فيعطيهم من الغنائم بغير حساب ، حتى إذا بقي منها قليل راح يوزعه على بعض فقراء المهاجرين ..!!

أما الأنصار ، والمسلمون الأوائل والكبار، فقد فوجئوا بالغنائم تزّاورَ عنهم إلى الآخرين ..

وكانت مفاجأة لم يعوّدهم الرسول بمثلها من قبل ، وفي زحمة النصر والناس والغنائم ، لم تأت الفرصة ليعطي تفسيراً لما حدث. فكان طبيعياً أن يكون الموقف موضع تساؤل ، بل وإحساس بالأسف والمرارة لاسيما من الأنصار الذين لم تُصب الغنائم منهم أحداً .

ولقد عبّر عن هذا الإحساس شاعر المسلمين والأنصار « حسّان بن ثابت » فقال :

وأتِ الرسول ، فقل يا خير مُؤتَمَنٍ
للمؤمنين إذا ما عُدِّدَ البَشر
علامَ تُدْعى سُلَيم ، وهي نازحة
قُدّامَ قوم هُمُوا آوَوْا وهم نصَرُوا
سماهُم الله أنصاراً ، بنصرهمو
دينَ الهدى،وعَوانُ الحرب تَسْتَعِر

ودخل زعيم الأنصار (سعد بن عُبادة) خيمة رسول الله ، فقال :

[يا رسول الله، إن هذا الحيّ من الأنصار قد وجِدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء] .

قال الرسول : « فأين أنت من ذلك يا سعد » ؟؟

قال سعد : [ما أنا إلا من قومي] ..

فأمره الرسول أن يجمع له الأنصار ، فجمعهم سعد ، حيث خرج إليهم رسول الله ، وقام فيهم يتحدث ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا معشر الأنصار ..

ما قالةٌ بلغتني عنكم ، وجِدَةٌ وجدتموها عليّ في أنفسكم ..؟

« ألم آتكم ضُلاَّلاً ، فهداكم الله .. وعالةً ، فأغناكم الله .. وأعداءً ، فألَّف الله بين قلوبكم ..؟

أجاب الأنصار هاتفين :

[بلى .. الله ورسوله أمَنّ وأفضل] .

واستأنف الرسول حديثه فقال :

« ألا تجيبوني أيها الأنصار » ..؟

قالوا ، وقد غلبهم الحياء :

[بماذا نجيبك يا رسول الله..؟ فلله ولرسوله المنّ والفضل].

قال الرسول :

« أمَا والله ، لو شئتم لقلتم ، فلَصَدَقْتُم وصُدِّقْتم .

« أتيتنا مكذَّباً ، فصدقناك .. ومخذولاً ، فنصرناك .

وطريداً ، فآويناك .. وعائلاً ، فآسيناك ..

« أوَجِدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم من أجل لُعاعة

من الدنيا تألفتُ بها قوماً ليُسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم..؟؟

« ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير .. وترجعوا أنتم إلى رحالكم برسول الله ..؟؟

« فوالذي نَفْسُ محمد بيده، لولا الهجرةُ لكنتُ امرءاً من الأنصار. ولو سلك الناس شِعْباً، وسلكَت الأنصارُ شِعباً ، لسلكت شعب الأنصار .

« اللهم ارحم الأنصار .. وأبناء الأنصار .. وأبناء أبناء الأنصار .. » !!!

* * *

لم يكد الأنصار يستمعون هذه التحية الماجدة ، ينثُر عليهم زهورَها الصادق الأمين عليه صلاة الله وسلامه حتّى فاضت أعينهم من الدمع ، وعلا نشيجهم وبكاؤهم .

لقد رفعهم الرسول في يوم الله هذا، إلى مُستوى اليوم العظيم وبدا تفسير ما حدث يستبين أمام جميع المسلمين .. إنه يريد أن يجرد نفسه وصحبه في هذا اليوم العظيم من كل سبب إلا الولاء المطلق لله رب العالمين — حتّى حقهم المشروع في الغنائم والفيء يلقيه وراءهم ظِهْرِياً ليكون يوم الله هذا ، يومَ تجرُّد وتبتُّل كاملين ..! وليعلم المسلمون ، ويعلم الناس جميعاً أن غنائم الحرب وإن تكن حقــاً مشروعاً للمقاتلين ، وسداداً لحاجات معايشهم وأرزاقهم إلا أنها ليست شيئاً مقصوداً لذاته، وليس لها مع هدف الجهاد في سبيل الله مكان ..!!

ولم يكن هناك بين الغزوات جميعها غزوة يكون تلقين هذا الدرس فيها مجدياً وحاسماً وأخاذاً مثل هذه الغزوة في يوم حنين..

فالغنائم فيها من فضة وذهب ، ومن إبل وغنم ، شيء يفوق الوصف .. شيء يتطلب الزهد فيه والعزوف عنه قدرةً روحية خارقة . ولقد أراد الرسول أن يكتسب أصحابه وأنصاره هذه القدرة الروحية الخارقة في هذا اليوم الإلهي العظيم .

وهكذا، ترك الغنائم التي تفتن الألباب تذهب للمؤلَّفة قلوبهم من حديثي الإسلام ، بينما ترك للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار مثوبة الله ورضوانه .. وفردوس الإيمان وجنانه ..!

لقد سئل عليه السلام عن صحابيّ فقير من غفار ، اسمه « جُعَيل بن سراقة الضمْري » لماذا لم يُعطه، بينما أعطى عُيَيْنَة ابن حصن ، والأقرع بن حابس وليس لهما في الإسلام مكان ؟

فكان جواب الرسول :

« والذي نفسُ محمد بيده لَجُعَيْل بن سراقة خير من مِلء الأرض من أمثال عُيَيْنَة بن حِصْن ، والأقرع ابن حابس ..

« ولكني تألَّفْتُهما ليُسلما .. ووَكَلْتُ جُعيل بن سراقة لإسلامه .. »

أجَلْ..لقد جعل عطاء أصحابه الأبرار في ذلك اليوم إيمانهم وتَبَتُّلَهم ، وربَّانِيَّتَهُم ..

وكفى به عطاءاً .. وكفى به جزاءاً ..!!

يوم التخيير

(يا أيها النبيُّ ، قُل لأزواجِك ...)

هنا تَنْدَاحُ مفاتح الزمن ، لتقدّم بين الأيام العظيمة في حياة رسول الله ، هذا اليوم الأغر الجليل .

وهو يوم ، تعودنا أن نمر بوقائعه مسرعين ، لا نكاد نعي منها إلا أن الرسول غاضَب أزواجه ، لأنهن أردن منه أن يوفر لهن شيئاً من مناعم الحياة ، فأبى الرسول ذلك ، ونزل الوحي مؤيداً موقف الرسول ، ومعاتباً زوجاته في لهجة التأنيب والتهديد.

وعلى الرغم من أن النظرة السريعة كافية لإظهار العظمة النادرة التي تنطوي عليها تلك الوقائع ، إلا أن ما وراء النظرة السريعة والشكل الخارجي للأحداث، أمر رائع تكاد القلوب وهي تتملاّه، تقفز من مكانها وتطير ..!!

ولكن ، وقبل أن نواجه الموضوع ، علينا أن نقف قليلاً مع كلمة « أزواج » حيث اعتاد نفر من المريبين والمستريبين أن يتخذوا منها موضوع غمز .. أو في أحسن مواقفهم ، موضوع تساؤل .

إنهم يتساءلون : لماذا كان لرسول الله هـذه الكثرة من الزوجات ..؟؟

والجواب عن تساؤلهم ، كُتبت فيه كتُب كثيرة، وأسفرت الحقيقة في هذه القضية إسفاراً مبيناً .

لقد بُعث الرسول – عليه السلام – في سن الأربعين، وهاجر إلى المدينة بعد ثلاثة عشر عاماً من بعثته – أي وهو في الثالثة والخمسين .. وطوال هذه المدة المباركة من عمره ، لم تكن له سوى زوجة واحدة – هي السيدة خديجة .. رضي الله عنها .. وبعد موتها ، لم يتخذ لنفسه سوى زوجة واحدة ، هي «سَوْدة بنت زمعة» ولبث على ذلك حتى هاجر إلى المدينة ، وهناك أعرس بعائشة بنت الصدّيق .

إن هذه الحقيقة وحدها تدحض كل تساؤل ، وتظهر في وضوح كامل أن تعدد الزوجات في حياة الرسول ، كان وليد أغراض أخرى أبعد ما تكون عن الرغبة في إشباعٍ جنسي .

وتأتي الحقيقة الثانية، لتؤكد الأمر، تلك هي أن جميع زوجاته عدا عائشة – كنّ ثيبات – ونصفهن عجائز ..

وتأتي حقيقة ثالثة ، هي أن كل نسائه – بعد خديجة – تزوج بهن – عدا سَوْدَة – في المدينة بعد الهجرة ، أي في السنوات التي قضى ليلَها ونهارَها في صراع مستمر لا يهدأ مع المنافقين في المدينة ، والمشركين في قريش .. وهوازن وثقيف بعد فتح مكة .. ثم مؤامرات الروم بعد أن دانت الجزيرة كلها للإسلام .

إذن ، فماذا كان سرّ هذا التعدد ..؟؟

لقد كان النبل ، والأبوّة ، والإحساس العميق بالمسؤولية وراء تعدد الزوجات في حياة الرسول .

ويمكن القول : أن الزواج الذي وقع في حياة الرسول بقصد الزواج ذاته ، إنما حدث مرتين :

أولاهما — زواجه بخديجة .

ثانيهما — زواجه بعائشة ، بعد موت خديجة .

أما بقية الزوجات ، فقد كان وراء الزواج بكل منهن ، سبب غير قصد الزواج .

والحق أن كل هذه الزيجات كانت « إيواءً ورعاية » أكثر منها زواجاً .

ولعل الآية الكريمة توضح هذا المعنى حين تقول للنبي :

« تُرْجِي من تشاء منهن »

« وتُؤوي إليك من تشاء »

كان إيواءً ورعاية لسيدات كريمات ، أصابهن من الظروف ما يدعو لإيوائهن ورعايتهن في أرفع مستويات الإيواء والرعاية .

فـ (حفصة) مثلاً .. استشهد زوجها في غزوة بدر ، وبقيت مترملة زمناً ليس بالقصير ، وكان النبي يرى في ترملها مشكلة ترهق مشاعر أبيها — عمر بن الخطاب — الذي عرضها على (أبي بكر) ليتزوجها فاعتذر .. ثم على (عثمان) فاعتذر أيضاً.. هنالك آواها الرسول إلى عصمته .

و (سَوْدَة) .. أسلمت هي وزوجها (السكران بن عمرو) وهاجرا إلى الحبشة .. وفي طريق عودتهما منها ، توفي زوجها . وتمنت أن تقضي حياتها في بيت رسول الله ، فتزوجها .

و (أم حبيبة) بنت أبي سفيان .. أسلمت وزوجها عبيد الله ابن جحش ، وهاجرا إلى الحبشة .. وفي الحبشة غيَّر زوجها دينه واعتنق النصرانية .. وبلغ أمرُه رسول الله . فشغلته مأساة الزوجة الوحيدة في بلاد الغربة والهجرة ..

هذه التي أسلمت مبكرة في الوقت الذي كان أبوها وأسرتها يتزعمون اضطهاد المسلمين .

أهناك عزاء وتكريم يقدمان لها في هذه المناسبة خير من أن يضمها الرسول إليه ..؟

ولقد فعل ، فأرسل إلى نجاشي الحبشة يطلب إليه أن ينشيء عقد زواج له بأم حبيبة .. وقام النجاشي بدعوة بعض المسلمين المهاجرين وأشهدهم على عقد الزواج . ودفع هو مهر العروس من ماله نيابة عن الرسول عليه الصلاة والسلام ..!!

إن هذه الواقعة ترينا ، كيف كان زواج أولئك الزوجات إيواءً لهن ورحمة بهن ..

فالرسول بزواجه من أم حبيبة على البُعد ، لم يكن يقصد الجنس في الزواج .. فهو في بلاد .. وهي في بلاد.. ولقد ظلّت بعيدة عنه بعد عقد الزواج سنين.. إنما أراد بعد أن فعل زوجُها ما فعل ألا يدعها فريسة الظروف الصعبة التي حاقت بها في بلاد الغربة .. وأراد أن يكافيء بما يستطيع ، هذه السيدة العظيمة التي هاجرت إلى الله ورسوله ، تاركة وراءها في بيت أبيها وأهلها .. النعمة والرغد والرفاهية .. فلم يجد لتكريمها أفضل من أن يجعلها إحدى زوجاته المباركات .

و (زينب) بنت عمة الرسول . ذات الحسب والجمال، خطبها

الرسول لزيد بن حارثة الذي كان عبداً وأعتقه الرسول،ثم تبناه.

لكن « زينب » لم تظهر ارتياحها لهذا الزواج ، وكذلك كان موقف أخيها ، بيد أنهما أمام رغبة الرسول وافقـا ، وزُفّت « زينب » إلى « زيد » .. لكن حياتهما الزوجية اتسمت بفقدان التفاهم والانسجام ، وكان لا بد من الطلاق .

وبعد الطلاق ، رغبت زينب أن تكون زوجـة للرسول ، ورأى الرسول نفسه مسؤولاً عن الزّج بها في زواج لم تكن تريده،

فلم يكن هناك تعويض لها أقل من تحقيق رغبتها .. وهكذا ضُمَّت إلى أمهات المؤمنين .

و « صَفيَّــة » بنت حُيي بن أخطب زعيم اليهود في بني النُّضَيْر وفي معركة « خيبر » التي دارت بين المسلمين واليهود ، فقدت أباها،وزوجها ، وأخاها ، ووقعت هي في أيدي المسلمين بين السبي والأسْرى .

ونقل بعض أصحاب الرسول إليه ، نبأها ، والرسول عليه السلام كان وافر الأسى والرحمة لكل عزيز قوم يَذِل ، ولقد دعا « صفية » وخيَّرها بين أمرين :

* أن يعتقها ، ويردها إلى من بقي من أهلها
* أو تسلم ، وتكون له زوجةً وأماً للمؤمنين

وصاحت « صفية » مغتبطة وشاكرة :

[اخترت الله ، ورسوله]

وتزوجها الرسول .

* * *

على هذا النمط ، كان تعدد الزوجات في حياة الرسول ..
كان الزواج في معظمه نوعاً من الإيواء والكفالة والعزاء والتكريم.
على أن التعدد في تلك العصور لم يكن يثير أية مساءلة .. بل على العكس كان يعتبر في أحيان كثيرة نوعاً من التضحية النبيلة.
وماذا نقول عن تعدد الزوجات في حياة أبي الأديان الثلاثة، وأبي الأنبياء ، وخليل الله « إبراهيم » عليه الصلاة والسلام ..؟؟
ثم في حياة كثير من الأنبياء ...؟؟

* * *

بعد هذه الوقفة القصيرة مع ما تثيره كلمة « أزواج » في حياة الرسول نعود إلى موضوعنا . موضوع التخيير والمفاضلة اللذين نزل بهما الوحي في حسم شديد وأكيد .
ولنبدأ بتلاوة آية التخيير .

« يا أيها النبي قل لأزواجك إن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحياة الدنيا وزينتها ، فتعالَيْنَ أمتِّعْكُنَّ وأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جميلاً ..
» وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فإن الله أعدَّ للمُحْسِنات منكنّ أجراً عظيماً » .

ماذا كان قد حدث حتى يتنزل الوحي بهذه الآيات التي تحمل طابع الاحتجاج والرفض ..؟
إن الذي حدث يومها لعجيب ..
كانت الجزيرة العربية قد دانت جميعها بالإسلام ، وكان المسلمون قد انتعشت معايشهم بما أفاء الله عليهم من غنائم ومغانم.. وكانت ضريبة الزكاة تحمل إلى المدينة من شمالي الجزيرة وجنوبها

في مواسم الحصاد والعطاء .. ومن الإبل والغنم والأموال ، وأخذ الرغد النسبي طريقه إلى كل دار وكل أسرة .

لكن أسرة واحدة ظلت مثابرة على شظف العيش لا تتحول عنه ولا تريم .. يمر الشهر والشهران والثلاثة دون أن تُوقِد هذه الأسرة ناراً تطهو عليها شيئاً من ألوان الطعام ..

تلك هي أسرة رسول الله !!!

أسرته جميعها ..

كان زوجاته يقمن في حجرات منفصلة إلى جوار المسجد ، لكلٍّ منهن حجرتها ومسكنها .. وكنّ جميعاً في شظف العيش سواء .

ليس ذلك فحسب .. بل امتدّ الشّظف إلى بنت الرسول (فاطمة الزهراء) التي تعيش بعيداً مع زوجها الإمام علي .. فكانت كلما ذهبت إلى أبيها الرسول تسأله من العطاء الذي يعطي منه الناس جميعاً ، تسمع منه هذا الجواب :

[.. لا أعطيكِ ، وأدعُ فقراء المسلمين] ...!!

ثم يضمّها إلى صدره حين يرى الدمع يترقرق في مآقيها ، ويقول لها : — ألا أدلك على خير من ذلك ..

[سبّحي الله ثلاثاً وثلاثين
واحمدي الله ثلاثاً وثلاثين
وكبّري الله أربعاً وثلاثين] ..!!!

كان — عليه صلاة الله وسلامه — يعرف تماماً مكانه وآل بيته من الدنيا ، ومكان الدنيا منهم .. كان يعلم أنه جاء الحياة ليعطي

لا ليأخذ .. ومن ثم عاش وحمل أهله ــ على العيش معه في مستوى الكفاف .. والكفافُ كثير ..!!

* * *

وحين فُتحت الدنيا على المسلمين ، وزفّ إليهم الكثير من أطايب الطعام واللباس والفراش ، بدا لزوجاته أن يسألنه من ذلك النعيم حظاً .. لم يطلبن ، بل لم يَرْغبن في أكثر مما يتاح للناس العاديين .. وتحدث بعضهن مع الرسول في الأمر .

كان الرسول يقــدر فيهن طبيعة البشر ، وما كان ليضنّ عليهن بتلبية رغباتهن المتعففة اليسيرة .. لكن أين القدوة إذن .؟ وأين حقوق القدوة على من جعلتهن الأقدار أمهات للمؤمنين..؟

إن القدوة هنا لا تطلب من الرسول وحده ، بل ومن كل من تربطه بالرسول صلة نسب أو قرابة .

ألم يقل للامام علي حين سأله مفاتيح الكعبة يوم الفتح :

[إنما أعطيكم ما تُرزأون ،
لا ما تَرزءون] ..؟!

أوَليس قد وضع لأهله قاعدة : أن يكونوا أول من يجوع ، إذا جاع الناس .. وآخر من يشبع إذا شبع الناس ..؟ بلى وها هوذا يستكثر أن يكونوا ولو آخر الشباع ..!!

ها هوذا يعيش ويعيشون معه على التمر والمــاء .. بينما ريح الشّواء تفوح من أكثر البيوت .

ها هوذا ينام عــلى حصير يترك آثاره الضاغطة على جسده الكريم ، حتى إن عمر بن الخطاب .. ليبكي حين يراه ، ويسأله أن يتخذ له فراشاً ليناً ، فيكون جوابه عليه السلام :

« يا عمر »

« إنها نبوّة ، لا مُلْك » !!

ألا ان يوم التخيير هذا .. وإن مسلك الرسول بعد أن فتح الله له ولدينه الجزيرة العربية كلها،وبعد أن صارت كل خيراتها وحاصلاتها تحت أمره .. نقول إن مسلكه ذاك لأصدق البراهين لمن شاء برهاناً على صدق نبوته ورسالته .

فلأي غرضٍ إذن . لو لم يكن الله غايته ومُرسلـه — كان سيقضي عمره في العبادة والنسك ، ثم في الجهاد الدائب وتحمّل الأهوال التي جابهته بها الوثنية طوال عشرين عاماً ملتهبة بالنار.!

هل ثابر وصابر واحتمل من أجل مجد شخصي .؟ من أجل الاستمتاع الفاغر بالحياة ..؟

فأين هو المجد الشخصي الذي تلفّع به وقد صار سيّد الجزيرة.؟

لقد ظلّ واحداً من الناس .. يرفض أيّ تمايز . ويرفض أن يقوموا له إذا قدم عليهم ، ويأخذ بجماع ثوبه واحد من صعاليك الأعراب قائلاً :

[أعطني ، فليس المالُ مالك ولا مالَ أبيك] ..!!

وأين هو استمتاعه بالحياة ، وقد صار تجبي إليه ثمرات كل شيء ..؟

لقد ظل على نهجه ، يشبع يوماً ، ويجوع أياماً .. وينام على الحصير الخشن .. ويلتحف ببردته .. وتأتيه الهدية من طعام أو كساء وفي أهل بيته من هم في منتهى الحاجـة إليها ، فإذا هو يؤثر بها فقيراً من أصحابه . ويمر الشهر والشهران وما يوقد في داره نار تطهو طعاماً ..!!!

لا مجد إذن ينشده ، ولا رفاهية ، ولا سيادة . ففيم كان ركوبه الصعاب واحتمال الأهوال في سبيل الإسلام ..؟

لا شيء ، إلا أن الإسلام كان كلمة الله .. وهو ، كان رسول الله ..

* * *

وهكذا ، رأيناه يغضب ، حين رأى زوجاته يرِدْن الخروج إلى الدنيا .. إلى نعيمها ، ومباهجها وزينتها .. ويتنزل الوحي بتأييد موقفه ، وبرفض موقف الزوجات .

« يا أيها النبي ، قل لأزواجك ، إن كنتن ترِدْنَ الحياة الدنيا وزينتها ، فتعالين أمتعكن ، وأسرحكن سراحاً جميلاً . »

« وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فإن الله أعدّ للمحسنات منكن أجراً عظيماً » .

أجل .. لا مكان للدنيا في بيت النبوّة . والله لا يريد لهن إرغاماً .. فمن شاءت الدنيا وزينتها فلتغادر بيت النبوة ولتتخل عن مكان القدوة .. ولتأخذ من طيبات الدنيا بعد ذلك ما يأخذ بقية الناس .

أما مَن كانت تريد الله ، ورسوله ، والدار الآخرة ، فلها ذلك ، ولها الأجر العظيم من الله . شريطة أن تنبذ الدنيا وراءها ظهرياً ، وأن تتقبل في غبطة وراحة شظف الحياة في بيت النبوة والوحي واليقين ..!!!

ونهض الرسول إلى زوجاته يتلو عليهن واحدة بعد واحدة كلماتِ الله ، ويبلغهن حكمه وتخييره .

وبدأ بعائشة ، ثم بقية الزوجات .. وما منهن واحدة تسمع آي الله إلا تصيح :

[.. بل أختار الله ورسوله] ..

وهل كان ينتظر منهن غير ذلك ..

أفئن وُضع رضوان الله ورسوله في كفة ، ووضعت مباذخ الدنيا في الكفة الأخرى ، يكون ثمة مكان للاختيار وللخيار .
وممن .؟ من زوجات الرسول وأمهات المؤمنين ..!

***

لقد أراد الله سبحانه أن يجعل من يوم التخيير ووقائع المفاصلة مزيداً من الإيضاح لجوهر الحياة اللائقة برسله وصفوته من خلقه.. ومزيداً من التوكيد على هوان الدنيا وهوان ما يقتتل عليه الحمقى من زخرفها الباطل وأمجادها الكاذبة .. ثم درساً بليغاً للناس — في كل عصر وزمان ، لكي يبصروا طريق الرشد ، ويختاروا بين عالم الله ، ودنيا الناس ..!!

يوم الوداع

(فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً)

١٠

أتم الله عليه نعمته،وأمسى قرير العين والفؤاد إذ رأى الشرك والوثنية قد كُنسا من الجزيرة العربية .. وطهّر بيت الله للطائفين والعاكفين والرُّكّع السجود . فلم يعد يطوف بالبيت مشرك ..

ولم تعد هناك (مَناة ، ولا عزّى ، ولا هبل ، ولا اللات). ولا أيّ من تلك الأصنام التي طالما سجدوا لها هم وآباؤهم .

عاد دين إبراهيم إلى وطنه . مسبّحاً بحمد الله مقدّساً له .

وبلغت كلمات الله إلى ملوك الأرض عن طريق الرسل الذين انتدبهم الرسول الكريم لهذه المهمة الجليلة .

وعلى قمة ثلاث وعشرين سنة قضاها وصحبه الأبرار في مُعاناة ونضال ، ترتكز الآن سارية النصر حاملة رايـــة الله التي تغطي أرض الجزيرة كلها بمجدها وسناها وهُداها .

ما أروعها من سنوات .. وما أمجدها من حياة ..!!

* * *

وفي أواخر ذي القعدة من السنة العاشرة شدّ رحاله إلى بيت الله الحرام ، وشد المسلمون معه الرحال .

وفي « عرفات » تنزّل عليه الوحي بهذه الآية الكريمة :

« اليومَ أكملتُ لكم دينكم »

« وأتممت عليكم نعمتي »

« ورضيت لكم الإسلام ديناً »

كمل الدين ، وتمت النعمة ، وساد الإسلام ..؟

إذن ، فالمهمة قد انتهت ، والرحلة قد شارفت مداها ..

ومن « دار الأرقم » إلى « مدينة الرسول » إلى دنيا الناس وعالم البشر ، يواصل النور سيرته ومَسراه .

لقد أوقد « محمد وأصحابه » الشعلة المباركة .. وكتب الله ألا يخفت لها أبداً ضياء .

لقد أديت الرسالة ، وبُلغت الأمانة ، وأصبحت كلمة الله هي العليا .

أترى الرحيل ، قد آن أوانه ..؟ وحق للمسافر أن يعود إلى داره ..؟؟ بلى .. آن موعد العودة والرحيل .

وفي « منى » بعد أن تمت شعائر الحج ، وآذنت أيام التشريق ، جاءه الوحي بهذه الآيات :

« إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس

يدخلون في دين الله أفواجاً ،

« فسبّح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً .»

وتلا الرسول على أصحابه — كعادته — هذا الوحي الجديد ، فازدادوا به طمأنينة وفرحاً ، لما يحمله من توكيد لاستمرار نصر الله وفتحه ..

لكن أبا بكر ، وعمر ، والعباس فاضت أعينهم بالدمع إذ

وجدوا فيه نعياً لرسول الله وإيماءاً بقرب رحيله .. ولقد صدّق الرسول فهمهم هذا ، وأنبأهم أن هذه الآيات تنعّى إليه نفسه .

***

هكذا يومىء الوحي وينبىء بقرب وفاة الرسول ..

إذا تمت كلمة ربك الحسنى ، وانتصر دينه وتفتحت أمامه الآفاق ورأيت الناس يسعون إليه ويدخلون فيه أفواجاً بعد أن كانوا يستخفون به ، أو يعرضون عنه ، فتهيأ للقاء ربك الأعلى .

لم يعد للرسول مكان في دنيا الناس بعد أن انتهت مهمته .. إنه لا يُعطى ولو بضع سنوات يحتفل خلالها بالنصر ويحيا في بحبوحته ورفاهه .

ولقد كانت هذه النهاية السريعة تعني أعظم التكريم والتمجيد لرسول رب العالمين .

ذلك أنها تكشف عن مقام الرسول عند الله .. إنه رسوله ومبعوثه إلى دنيا البشر .. إنه خلقه واصطفاه لهذه المهمة لا غير.. مهمة التبليغ عنه ، والدعوة إليه ، وغرس رايته في الأرض .

فإذا انتهى دوره ذاك ، صعد على الفور إلى الرفيق الأعلى، حيث هناك وطنه الحق ومقامه الأبدي .

ولكن ، لماذا والوحي ينبئه بقرب رحيله ، يدعوه لأن يسبّح ويستغفر ..؟

« فسبّح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان تواباً » .

إنه برهان جديد ، ولعله سيد البراهين على أن (محمداً) عليه الصلاة والسلام كان رسول الله ، يتلقى عنه ، ويدعو إليه بإذنه ..

فلو أنه كان يعمل في نطاق شخصي ، وتدفعه حوافز ذاتية

مهما يكن نبلها ، ثم أحس بدنوّ أجله وأراد أن يعبّر عن إحساسه بكلمات ينعى بها نفسه ، لما جاءت على هذا النحو أبداً .. دعوة إلى الاستغفار والمتاب .

لكن ، لأنه رسول الله حقاً — ولأن القرآن وحي الله حقاً جاء نعي الرسول على هذه الصورة الفريدة والمجيدة .

فالرسول مهما تكن منزلته ومقامه ، عبدالله .. بل إن حظه من العبودية لله يزداد تبعاً لازدياد رفعته كرسول .. وهو كلما توقل صاعداً في درجات الكمال ازداد تخشعه وتضرعه لربه، وبلغ إحساسه بالعبودية له أعلى ذراه ..

وهو بهذه المثابة لا يملك لنفسه في رحلة العودة إلى ربه إلا أن يسبّحه كثيراً ، ويقدسه ويحمده ، وإلا أن يستغفره من ذنبه حتى لو لم يكن له ذنب ..!!

ذلك أن الاستغناء عن الاستغفار يعني الزهو بالطاعة وبالكمال ، أما اللهَج بالاستغفار فيعني الإقرار بنعمة الله ، والإقرار بالعجز عن شكرها .. وفي هذا آية على صدق العبودية لله ، كما هو آية على رفعة المقام عند الله ..!!

من أجل هذا ، رأيناه — عليه السلام — على الرغم من تفانيه الدائب في عبادة ربه ، يزداد بعد نزول هذه الآيات إمعاناً في النسك وإقبالاً على التعبّد ..

يقول أبو هريرة رضي الله عنه :

« اجتهد النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزولها ، حتى تورّمت قدماه ، ونحل جسمه ، وقلّ تبسمه ، وكثر بكاؤه » ..

هذه أولى نفحات «يوم الوداع» نلتقي بها في بواكير صباحه.

والآن ، فإلى ذلك الجمع المشهود ، لنسمع ونرى ..

* * *

هنا فوق المنبَسط الفسيح من « مِنىً » وقف مائة وعشرون ألفاً من المسلمين .. وقفوا حافّين حول رسولهم الكريم الذي تهيأ ليلقي عليهم من حديثه المضيء بعض النصائح والكلمات .

كان الفرح والبشر والأمل والثقة تشيع في الزمان والمكان ، وتملأ الأنفس حيوية وانبهاراً ..

لم يكونوا يعلمون أن الرسول نُعي إلى نفسه .. فحتى الذين تُليت عليهم سورة « النصر » وسمعوها لم يفهموا منها ما فهمه أبو بكر ، وعمر ، والعباس ، رضي الله عنهم وعن الصحابة أجمعين ..

لم يكونوا يدرون إلا أنهم في مهرجان عظيم ، يحتفلون فيه بانتهاء مناسك الحج ، كما ينعمون بنصر الله وفضله . فهؤلاء المائة والعشرون ألفاً من المسلمين ، إنما يمثلون هنا الجزيرة العربية كلها بكل قبائلها ومواطنيها .

أجل .. فما عاد هناك شِرْك ، ولا مشركون . إنما هو الإسلام في كل قبيلة .. وفي كل دار ..!!

وهَمّ الرسول بالحديث ، بينما وقف قريباً منه بعض أصحابه ليبلّغوا عنه ، حتى تصل كلماته إلى جميع المسلمين ..

لم يعدّ الرسول خطابه ، ولم ينمقه حتى يجيء في الصورة المحسوبة لخطبة وداع — وأيّ وداع ...!!

بل لعلّه لم يكن في حسبانه أن يقف اليوم خطيباً ؛ فقد جاءه ما يشغله — التهيّؤ للقاء ربه الأعلى .

وكعادته دائماً في إيثاره البَساطة ، ونبذه التكلّف والتعاظُم ، وقف يذكّر أصحابه ، ويزوّدهم ببعض وصاياه ، وتحدّث ، فجمع وأوعَى ..

واشرأبت الأعنــاق ، وأصغت القلوب ، وأرهفت العيون أحداقها ..

وأشرق في الأفق السّاكن صوت الرسول :

« أيها الناس ...

اسمعوا قولي ، فإني لا أدري . لَعَلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا ، في هذا الموقف أبداً » ...

كلمات لم يكونوا يتوقعونها .. وبداية لم يهيئوا أنفسهم لملاقاتها.. لقد اختطفتهم المفاجأة من جوّ التهلل والحبور الذي كان يغمرهم..

ماذا ...؟؟ لَعلّي لا ألقاكم بعــد عامي هذا ..؟ أي نذير تَفْدَحُنا به يا رسول الله ، وأنت البرُّ بنا والرحيم ..؟؟

ولم تستطع شهقاتهم الحزينة أن ترتفع وتُولوِل، فقد علّمهم القرآن من قبل ألا يرفعوا أصواتهـم فوق صوت النبي . هنالك تحولت كل إرادة التعبير عن الأسى والفجيعة إلى العيون ، فهي التي تستطيع أن تصرخ دون أن يكون لها صوت مسموع .. وهكذا سالت دموع الجمع الحاشد في فيضان عظيم ..!!

وواصَل الرسول حديثه :

« أيها الناس ...

إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ،

إلى أن تلْقَوْا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ..

وكحرمة شهركم هذا ..

« وإنكم ستلقون ربكم ، فيسألكم عن
أعمالكم . وقد بلّغت .
« فمن كانت عنده أمانة ، فليؤدّها إلى من
ائتمنه عليها » ..

هكذا ، وفي خطاب الوداع يركز في إيجاز حاسم على أكثر ما يقدس الناس من حقوق : حق الحياة .. وحق الجهد .. فعصم الدماء ، وعصم الأموال . لا يُنال من ذلك شيء إلا بحقه المشروع . وفي نفس اللحظة ربط — كعادته — عليه السلام بين العمل الإنساني والوازع الإلهي ليراقب الناس ربهم ويتقوه في رعاية ما يوصي به ويدعو إليه ..

[ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم] ..

***

ثم هتف برفض الربا كله .. ورفض الثأر كله .. فكلاهما الربا .. والثأر ، عدوان على حق الحياة وحق المال ..

قال عليه السلام ، وهو يستأنف خطبته :

« وإن كل رباً موضوع .. لكم رؤوس أموالكم ،
لا تَظلمون ولا تُظلمون .. قضى الله أنه لا رباً ..
وأول رباً أضع ، ربا العباس بن عبد المطلب .
« وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع .. وأول دمائكم
أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب » .

هكذا قدم القدوة من آل بيته .. فربا العباس عمه الذي كان له قبل أن يحرّمه الإسلام ، يكون أول ربا يلغيه الرسول ويبطله.. ودم ابن ربيعة بن الحارث — ابن عمه — يكون أول دم يلغي به عادة الثأر والانتقام ..

وتتألق في الأفق العريض الواسع أمام رسول الله نعمة الله المتمثلة في كنس الشرك من الأرض التي كانت وطنه ودنياه .. لكنه يعلم أن كل نصر عظيم يخلق تبعات جديدة .. فإذا كان الشيطان قد خسر معركة الوثنية ، فإنه سيتشبث بمحاولات الإغواء والإغراء في مجال الذنوب والشهوات .

وكان لا بد للرسول الذي طالما جلّى لأصحابه خطر الخطيئة ، أن يذكر به في يوم الوداع ، وأن يحذر منه مهما يكن صغيراً..

« أيها الناس ..

« إن الشيطان قد يئس أن يُعبد بأرضكم هذه ، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم » .

* * *

ولما كان الناس يحيون في الزمان .. والزمان شهور وأعوام وأيام .. ولما كان الإسلام قد جعل من بعض الشهور وعاء وميقاتاً لفرائض معينة . فرمضان مثلاً للصوم .. وذو الحجة للحج .. وذو القعدة . وذو الحجة . والمحرم ، ورجب أشهر حُرُم ، لا يحل فيها غزو ولا قتال . كان لا بد من التركيز في هذا اليوم على إبطال عادة « النسيء » .

والنسيء محاولة كان العرب في الجاهلية يعبثون بها في الترتيب الزمني للشهور .. فإذا جاء « المحرم » مثلاً وهم يريدون القتال ، اعتبروا المحرم «صفراً» .. كذلك كانوا يستخدمون الكبس في تقويمهم ، فيحسبون السنة اثني عشر شهراً ، وخمسة عشر يوماً ، فكانت استدارة الشهور الناجمة عن هذه الزيادة ، تجعل الحج

يأتي في غير ميقاته .. بل تجعله يتنقل بين جميع الشهور على تعاقب السنين ..

وها هوذا رسول الله يعطي للمواقيت قرارها واستقرارها .

« أيها الناس ..

« إنما النسيء زيادة في الكفر . يُضَل به الذين كفروا ، يُحلّونه عاماً ، ويحرمونه عاماً ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلّوا ما حرّم الله ، ويحرموا ما أحل الله ..

« وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض .. وإن عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم » ...

***

ثم يفيض براً ورحمة وحناناً وهو يقول :

« .. واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن عندكم عوان ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً .. وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله .. واستحللتموهن بكلمات الله » ..!!

ويتراءى الوقت أمام الرسول قصيراً ، بينما مجال الحديث واسع وطويل . فيلخص كل نُصحه وعِظته في هذه العبارة :

« .. وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به ، فلن تضلوا أبداً ...

« كتاب الله .. وسنة نبيه » .

أجل ، القرآن ، والسنة .. حصيلة ثلاث وعشرين سنة عاشها على الأرض رسول السماء .. فيهما كل الهدى ، وكل العافية ، وكل النور .

وكان المتوقع أن تكون هذه العبارة مسك الختام .. بيد أن

موضوع العلاقات الإنسانية بين المسلمين والحقوق المكفولة لكل فرد منهم، يعود فيلحّ عليه من جديد. وهكذا يخصه بالنظرة الأخيرة:

« تعلمُن أن كل مسلم أخ للمسلم .. وأن
المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه
إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه .. فلا
تظلمن أنفسكم » .

ثم احتوى الجموع الحاشدة بعينيه الثاقبتين ، ونادى :

« اللهم . هل بلّغت ؟؟ » .

وارتجّ السهل العريض بالأصوات العالية ، تنبعث من حناجر مائة وعشرين ألفاً ، تجيب الرسول :

« اللهم . نَعَم » ...

***

ومضى على ذلك اليوم المجيد ألف وأربعمائة عام ..

وستمر ألف وأربعمائة عام أخرى ..

ستمر آلاف الأعوام ، ما أذن الله لهذه الأرض أن تبقى وتدوم .

وخلال ذلك الزمان — ما بقي الزمان — سيظل رشد الإنسان وضمير الحياة ينبضان بسؤال الرسول :

« هل بلّغت » ..؟؟

وسيظل كل شيء في دنيا الناس يُؤَوِّب ، ويشهد ، ويجيب:

« اللهم نعم » .

« اللهم نعم » .

الفهرس



الثمن ٥ ليرا